

رواية

لصوص العاصمة الإدارية

حلم العودة حين يصبح باباً مغلقاً



د. وجيه الجوهري

رواية عربية

لصوص العاصمة الإدارية

د. وجيه الجوهري



مؤسسة ثقافات العالم والتعليم

الطبعة الأولى ٢٠٢٦٠

لصوص العاصمة الإدارية

رواية

د. وجيه الجوهري

الطبعة الأولى ٢٠٢٦

نشر: مؤسسة ثقافات العالم والتعليم (WCE)

© ٢٠٢٦ د. وجيه الجوهري / مؤسسة ثقافات العالم والتعليم

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز إعادة نشر هذا العمل أو توزيعه دون إذن صاحب الحق، باستثناء ما يجيزه القانون.

صابر المتولي، وجمال قرقش، ورفعت الكيال، وسائر شخصيات الرواية شخصيات روائية متخيلة. المطالبات المالية والمبالغ والمواعيد والإجراءات الواردة عناصر في البناء القصصي، وليست عرضاً لملف قضائي أو إرشاداً قانونياً أو طبياً.

mywce.org

DrE@mywce.org

إلى الذين حملوا الوطن في حقائبهم،
وعادوا يبحثون عن مكان لهم فيه.
وإلى الأسر التي تعلمت الانتظار،
ثم تعلمت كيف تحمل بعضها بعضاً.

من وحي المعاناة

هذه رواية من وحي مآسي أزمة العقارات في العاصمة الإدارية الجديدة، وما قد يواجهه بعض المغتربين حين يحاولون تحويل سنوات العمل والادخار إلى بيت آمن.

تتبع الحكاية صابر المتولي، رجلاً يعود من الغربة وفي يده رسم لشرفة، ثم يجد نفسه أمام مطالبات إضافية وخصومات وتسويات ومواعيد تتكاثر. بين المطور رفعت الكيال والمحامي جمال قرقرش، تتآكل قدرته على معرفة ما دفع، وما أنجز، وما بقي من الطريق.

هذه حكاية متخيلة بشخصياتها ووقائعها وحواراتها وشركاتها ومؤسساتها. استلهم إيقاع المعاناة والانتظار من تجارب إنسانية، ثم أعيد بناؤه روائياً، فلا تسرد الصفحات قضية بعينها، ولا تنقل مراسلات خاصة، ولا تقدم اتهامات موثقة إلى أشخاص حقيقيين. وأي تشابه عارض في الأسماء لا يعني تطابقاً في الهوية أو الوقائع.

يأتي الغضب في هذه الرواية من اقترابه الشديد من الحياة اليومية: مائدة تضيق بالأوراق، وحذاء ينتظر إصلاحاً، وأسرة تتعلم أن تحفظ الرسائل بدل الصور. وحين يوشك صابر على فقد الثقة بكل ما حوله، تبقى أفعال صغيرة لأناس لا يملكون الحل، لكنها تكشف ما كان يمكن أن يكون عليه العالم.

الفصول

٨	١ العنوان البعيد
١٢	٢ سنة في درج
١٦	٣ المدينة المصغرة
٢٠	٤ توقيع في الظهر
٢٣	٥ العودة المؤجلة
٢٦	٦ خمسون في المائة
٢٩	٧ غرفة العملاء
٣٢	٨ اسم على النحاس
٣٥	٩ النسخة الناقصة
٣٩	١٠ باب المحكمة
٤٣	١١ طابور السنوات
٤٧	١٢ حكم صغير
٥٠	١٣ دقتر جمال
٥٣	١٤ صوت في الهاتف

الفصول • تمة

٥٦	١٥ دعوى جديدة
٥٩	١٦ جلسة على مقهى
٦٢	١٧ الشقة البديلة
٦٥	١٨ البياض في العقد
٦٨	١٩ الذين ينتظرون
٧١	٢٠ بريد بلا مرفقات
٧٤	٢١ زيارة رفعت
٧٧	٢٢ العودة إلى الغربية
٨٠	٢٣ ثمن الوقت
٨٣	٢٤ آخر مرة
٨٦	٢٥ كلمات متعثرة
٨٩	٢٦ الدفع أولاً
٩٣	٢٧ الجهة الأخرى
٩٧	٢٨ خلف المستشفى

١ | العنوان البعيد

عند الخامسة إلا عشر دقائق أطفأ صابر المتولي مكواة البخار، وفتح صنوبر الماء البارد على ظاهر يده. عبر خط أحمر بين الإبهام والرسغ، ثم اختفى تحت الماء. كانت الحروق الصغيرة جزءًا من العمل؛ تظهر في الصباح ولا يتذكر في المساء أي قميص تركها. أغلق الصنوبر حين سمع عربة الملاءات تدخل من الباب، ولف يده بمنشفة قبل أن يراه المشرف.

في مغسلة الفندق بمسقط، لا يعرف الصباح من المساء إلا من نافذة عالية تطل على جزء من عمود إنارة. حين يضيء العمود، تكون نوبة النهار قد ابتلعت تسع ساعات أخرى. حفظ صابر أصوات الآلات: للسير الذي يحتاج إلى شد صرير قصير، ولل مضخة التي توشك على التوقف شهقة تشبه شهقة رجل يصعد سلمًا. كان يعرف متى يتدخل قبل أن تضيء اللبنة الحمراء، ولذلك قال له المدير مرة إنه صار جزءًا من المكان. ابتسم يومها، ثم ظل يتساءل عن معنى أن يمدحك أحد بأنك لم تعد قادرًا على المغادرة.

خلع قيص العمل عند الخزانة الحديدية. في الجيب الداخلي لمحفظته ورقة مطوية تحمل رسم شرفة. رسمتها ابنته هالة وهي في التاسعة، وكتبت تحتها: «مكان بابا لما يرجع». صارت هالة في السادسة والعشرين، وتخرجت في كلية التجارة، وبقيت الشرفة بين بطاقة الإقامة وبطاقة البنك. تغيرت البطاقات مرات، ولم تتغير الورقة.

كان أخوه ياسر قد أرسل صباحاً رابطاً لإعلان عقاري. رأى صابر الصورة في استراحة الشاي: مساحات خضراء، وامرأة تقود دراجة، ورجل أبيض الشعر يقرأ في شرفة واسعة. لا سيارة متوقفة على الرصيف، ولا سلك كهرباء يقطع السماء. احتفظ بالرباط ليشاهده مساء، ثم عاد إلى آلة تجفيف ثن من ثقل المناشف.

في الغرفة التي يتقاسمها مع عاملين، جلس على طرف السرير وشاهد الإعلان دون صوت. كان زميله نائماً، وفي السرير الآخر رجل يعد نقوده على ضوء هاتفه. ظهرت المدينة الجديدة فوق رمل مرتب بعناية. حرك صابر إصبعه فدخل شقة نموذجية، ورأى مطبخاً به نافذة، وحماماً يسهل دخوله، وصالة تتسع لطاولة الأسرة. توقف طويلاً عند النافذة. في بيتهم القديم

كانت نافذة المطبخ تواجه منوراً ضيقاً تمر فيه أصوات الجيران قبل الضوء.

اتصل بسناء. رفعت الهاتف إلى قرب وجهها لتسمع وسط صوت المروحة. قال إنه وجد شقة مناسبة للعودة. لم تسأله عن المساحة أولاً، بل عن السلم. ركبته تؤلمه منذ الشتاء الماضي، والمصعد في بيتهم القديم يتوقف إذا اشتغلت مضخة المياه. قال إن العمارة الجديدة بها مصعدان. سكنت قليلاً، ثم طلبت منه ألا يرسل شيئاً قبل أن يقرأ زياد الورق.

كان زياد يومها في آخر سنة بالجامعة، ويجب أن يفحص كل شيء. قال من خلف أمه: «الصور حلوة، بس ابعت العقد». ضحك صابر من حذر ابنه. دفع عمره كله ثمناً ليصبح للأولاد حق في هذا الصوت الواثق الذي يسأل عن الأوراق.

بعد المكالمة دخل إلى تطبيق البنك. نقل نظره بين الرصيد والصورة مرات، وبدأ يحسب مكافأة نهاية الخدمة وما يمكن أن يبيعه من حلي قديمة احتفظت بها سناء. كانت لديه أرقام يعرفها حتى دون شاشة: ثمن العملية التي أجراها أبوه، قسط المدرسة، تذكرة عودته في جنازة أمه. أما الرقم الجديد فبدا وعداً بوقف الحساب إلى الأبد.

أطفأ الهاتف ووضعه تحت الوسادة. قبل أن ينام أخرج رسم الشرفة، وأعاد طيه من حواف بدأت تتفتت. عندئذ فقط شعر بأن عنواناً يمكن أن ينتظره في نهاية الطريق.

٢ | سنة في درج

وصلت أول حوالة من صابر إلى سناء بعد زواجهما بسبعة أشهر. أخذت يومها الورقة إلى أمها، وبسطتها بجوار طبق العدس، وأشارت إلى اسمه المطبوع بحروف أجنبية. قالت الأم إن الغربة ستنتهي سريعاً، وإن بضع سنوات تصنع أول الطريق. وضعت سناء الورقة في درج الدولاب. بعد ذلك امتلأ الدرج حتى احتاج إلى رباط مطاطي عريض.

في الأوراق التالية نمت الأسرة. حوالة تحمل مصروف ولادة هالة، وأخرى لتصليح سقف بيت أبيه، وحوالات صغيرة في أشهر انخفاض فيها العمل الإضافي. كان صابر يكتب في ظهر بعضها ما تبقى من هدفه: «بعد سنة نرجع»، ثم يشطب السنة في الزيارة التالية ويضع رقماً جديداً. لم تطلب منه سناء أن يتوقف عن الكتابة. كانت ترى أن بعض الرجال يحتاجون إلى موعد، حتى إن كان يعرف أنه سيؤجله.

في الشتاء الذي اشتروا فيه غسالة جديدة، حملت هالة حذاءه القديم إلى المدرسة في يوم المهن. قالت للمعلمة إن أباه يعمل

في فندق كبير ويعرف كيف يجعل الأشياء نظيفة. احتفظت سناء بالورقة التي رسمت فيها ابنتها رجلاً طويلاً بجوار آلة مربعة. عند عودته في الإجازة علق الرسم على باب الثلاثة، وضحك من طول ذراعيه. لم تخبره هالة أنها رسمته طويلاً لأن صورته على شاشة الهاتف لا تظهر قدميه أبداً.

كبر الأولاد على معرفة مواعيد الطائرات وفروق الوقت. إذا اتصل الأب قبل المغرب، قالت سناء إنه تعشى هناك. وإذا غاب عن الهاتف، قالت إنه في العمل، حتى حين يكون في المستشفى لعلاج كتفه. كان الأب يستطيع إرسال مصروف الكشف الطبي، ويصعب عليه إرسال قلقه معه. يختار من الأحداث ما يحتمله الصوت، ويترك الباقي إلى حين العودة.

في إحدى الإجازات، وجد زياد أطول منه. وقف الصبي في باب الشقة، ثم تراجع ليفسح له الطريق كما يفعل مع ضيف. شعر صابر بالوخزة قبل أن يحتضنه. في المساء حاول إصلاح صنبور، فمنعه ابنه وقال إن السباك يأتي صباحاً. جلس على الكرسي وبقي يحمل المفك. كان يعرف كيف يصلح مضخة تكفي ثلاثمائة غرفة، ويحتاج إلى إذن صغير كي يكون نافعاً في بيته.

لذلك أخذ الإعلان الجديد مكاناً أكبر مما تستحقه شاشة. الشقة تعني أشياء لا تظهر في جدول الأقساط: أن يوقظ ابنه بنفسه، وأن يعرف اسم بائع الخبز، وأن تختصم سناء معه على تلفاز يسمعانه في الغرفة نفسها. ظل يتخيل أول صباح لا يحمل فيه بطاقة إقامة إلى العمل.

عندما أخبر زميله عطية عن المشروع، طلب الرجل أن يرى الصور. جرى بإصبعه على الممرات وقال إن ابنه اشترى في مدينة أخرى، وإن التسليم تأخر عاماً. رد صابر بأن الشركة هنا كبيرة، ولها إعلانات في الطرق. لم يناقشه عطية، لكنه ظل ينظر إلى الصورة التي يظهر فيها العشب أكثر اخضراراً من أي شيء رآه في حياته.

في الخميس التالي، بعثت هالة بصورة للدولاب القديم وقد أفرغت سناء درجه. نشرت أوراق الحوالات على السرير ورتبتها بحسب السنوات. قالت في الرسالة: «ماما بتقول نعرف الفلوس راحت فين قبل ما نعمل حساب الجديد». كبر صابر الصورة، فرأى على طرف إحدى الأوراق خطه القديم: «بعد سنة نرجع».

اتصل ولم يجد ما يقوله عن الشقة. سأل سناء إن كانت ما زالت تحتفظ ببطانية أمه، فاستغربت السؤال. قالت إنها في الرف الأعلى، وإنها ستأتي بها في البيت الجديد. أوماً إلى الهاتف كأنها تراه، ثم طلب أن تكون الحجرة التي تطل على الشارع لهما. كان قد بدأ يوزع الأثاث قبل أن يرى الأرض.

٣ | المدينة المصغرة

استقبله مكتب المبيعات في القاهرة برائحة قهوة لا تشبه قهوة المحطات. على الجدار شاشة كبيرة تعرض طرقاً بلا زحام، وفي منتصف القاعة نموذج مصغر لعمارات بيضاء تحيط بحيرة زرقاء. توقف صابر عند البحيرة. كانت شجرة صغيرة قد مالت فوق الماء البلاستيكي، فمد إصبعه ليقيمها، ثم سحب يده حين اقتربت الموظفة.

اسمها مروة، وصوتها منخفض بما يكفي ليشعر الزائر أنه يتلقى خبراً شخصياً. أحضرت له زجاجة ماء، وسألته عن سنوات الغربة. حين قال ثمانياً وعشرين، وضعت القلم وقالت: «يبقى حضرتك تستاهل ترتاح». لم يتذكر أن أحداً قالها له بهذه البساطة. في العمل كان يستحق علاوة أو نوبة أخف؛ هنا بدا التعب كله شهادة استحقاق لشرفه.

جلس زياد بجواره يحمل دفترًا أسود. طلب رؤية رخصة البناء والجدول الزمني ومسودة العقد. ابتسمت مروة وأعطته ملفاً أنيقاً. أما صابر فظل يتابع يدها وهي تشير إلى العمارة في

النموذج. الدور الرابع، واجهة شرقية، مساحة تسمح بغرفة للأولاد حتى بعد زواجهما. قالت إن المدينة ستخلق معنى جديداً للسكن، فطلب زياد أن يعرف تحديداً موعد توصيل المياه.

ظهر رفعت الكيال في نهاية القاعة. عرفه صابر من صور اللوحات الإعلانية: بدلة داكنة، منديل جيب فاتح، شعر فضي مشط بعناية. كان أقل طولاً مما تخيل، لكنه يتحرك بين المكاتب كأنها تفسح له الطريق قبل أن يصل. صاحف صابر بكلتا يديه، وقال إن المغتربين هم أهل المشروع الحقيقيون، وإن أمواهم يجب أن تجد بيتاً يحفظها.

سأله زياد عن بند يسمح للشركة بإعادة حساب بعض المصروفات. أخذ رفعت العقد منه، وقلب صفحتين دون أن ينظر طويلاً، ثم قال إنها صياغات تشغيل معتادة، وإنه لا أحد يريد أن يختلف مع عميل عند باب بيته. وضع يده على كتف صابر وأضاف: «إحنا بنسلم حياة، مش خرسانة». كتب زياد العبارة في دفتره، ولم يضحك.

أراد صابر زيارة الموقع في اليوم نفسه. رتبت مروة سيارة، وأعطتهما خوذتين بيضاوين. في الطريق اختفت العمارات

القديمة، وامتدت مساحات التراب حتى صارت السماء أكبر. حين وصلوا، رأى أعمدة وبعض مبانٍ تكسوها الطوب الأحمر. أشار المهندس إلى مكان العمارة التي اختارها. كانت شمس الظهر تحو الفروق بين القطع، فاحتاج صابر إلى تتبع إصبع المهندس مرتين.

وقف فوق الرمل وأدار وجهه ناحية الشرق. قال إنه يتخيل موضع الشرفة. سأل زياد عن العلامة التي تحدد رقم المبنى، فأشار المهندس إلى خشبة عليها كتابة باهتة. التقط الابن صورة للخشبة. التقط الأب صورة للسماء.

في طريق العودة اتصلت سناء. أرادت أن تعرف هل توجد خدمات قريبة. قال صابر إن كل شيء سيأتي. قالت: «أنا بس عايزة أعرف أجيب العيش منين». وعدها بأن المحال في المرحلة الأولى. لم يسأل المهندس عن أول مخبز؛ خاف أن يبدو السؤال أصغر من الحلم الذي يعرضونه عليه.

حين دفع مبلغ الحجز، تسلم إيصلاً بحروف ذهبية في أعلاه. أعطته مروة مفتاحاً رمزياً في علبة مخملية. كان بلا أسنان، لامعاً وثقيلاً قليلاً. وضعه صابر في كفه، وحركه كما يختبر معدناً

جديداً في العمل. سأل مازحاً إن كان يفتح شيئاً. قالت إنه يفتح المستقبل.

عاد إلى البيت ووضع المفتاح على كف سناء. قلبته، ثم ضحكت من استدارته الناعمة. قالت إنها ستحتفظ به حتى يصل المفتاح الحقيقي. في تلك الليلة نامت العلبة بجوار أوراق البنك، ولم ينتبه أحد إلى أن الأشياء التي تلمع قد تحتاج هي الأخرى إلى قراءة دقيقة.

٤ | توقيع في الظهر

جاء موعد التوقيع في اليوم السابق لسفر صابر. تأخر الموظف الذي يحمل النسخ النهائية، واعتذرت مروة لأن مدير العقود في اجتماع. كان صابر يراقب الساعة أكثر مما يراقب الباب. في حقيقته ملابس لم ترتب، وفي البيت قريب يريد زيارته قبل المغادرة، وفي هاتفه تذكير بتجديد التأمين. قال زياد إن الطائرة يمكن تأجيلها، وإن العقد سيبقى أطول منها. غضب صابر من الجملة، ثم نجل من غضبه.

وصلت النسخ بعد الظهر. على حواف الصفحات مربعات صغيرة للتوقيع. أخرج صابر نظارته، ومسحها بطرف قميصه، وقرأ اسم الشركة ثم اسمه واسم أبيه. شعر بطمأنينة غريبة حين رأى اسمه العربي كاملاً. في الأوراق التي يحملها منذ الغربة، يختصره الموظفون، أو يبدلون ترتيب أجزائه. هنا كان رجلاً معروفاً، له أب وقرية وبطاقة وعنوان.

قرأ زياد بند التسليم بصوت مسموع، وسأل عن معنى الظروف الاستثنائية. قال الموظف إن المقصود كوارث لا تحدث عادة.

سأل عن رسوم الخدمات، فأجاب بأنها تكاليف فعلية يحددها التشغيل، وإن ما يخص الشقة مثبت في الملحق. أشار زياد إلى أن الملحق لا يحمل تاريخاً. اتصل الموظف بمديره، ثم كتب التاريخ بخطه ووقع بجواره.

كان صابر يضع أسئلة ابنه في كفة، وفي الأخرى بيتاً يوشك أن يصل إليه. لا يخلو عقد من كلمات ثقيلة؛ حتى عقد عمله الأول احتاج إلى شرح، ثم عاش تحته أعواماً دون أن يقرأه ثانية. قال لنفسه إن الحذر إذا طال صار عذراً للبقاء حيث هو. التقط القلم، ووضع توقيعته في المربع الأول.

في الصفحة الأخيرة طلب الموظف بصمة. نظر صابر إلى إصبعه ذي الجلد الخشن، وضحك من صعوبة أن يترك أثراً نظيفاً. أعاد المحاولة، فظهرت دوائر غير مكتملة. قال الموظف إنها تكفي. لم يكن يعرف أن نصف الدوائر سيدشغل هالة بعد سنوات، حين تحاول التأكد من أن الورق الذي وصلها هو نفسه الورق الذي لم يكف أباهما الوقت لقراءته.

قبل أن يغادر سأل عن صورة جميع المستندات. أعطوه نسخة في غلاف شفاف، وقالوا إن بقية الملفات سترسل إلكترونياً. أراد زياد أن ينتظرا البريد، لكن مروءة أقبلت تحمل هدية

صغيرة: مجسم للعمارة من الأكريليك. وضعت فيه ضوءًا أبيض فاشتغلت النوافذ كلها دفعة واحدة. ابتسم صابر للمرة الأولى منذ الصباح.

في المطار، جلس إلى جوار حقييته وأرسل إلى سناء صورة المجسم. أجابت بصورة المفتاح الناعم داخل علبته. كتب لها: «ناقص كام سنة ونقعد». هذه المرة لم يحدد رقمًا، ترك للجدول المطبوع أن يؤدي المهمة عنه.

عندما نادى شركة الطيران على الرحلة، وضع المجسم في حقيية اليد كي لا ينكسر. اختلط عند التفتيش بسماعات الهاتف وعلبة دواء للمعدة. نظر الموظف إلى العمارة المضيئة وسأله إن كانت لعبة لابنه. قال صابر: «بيتنا». ابتسم الموظف وأعادها إليه.

بعد الإقلاع، انطفأت أنوار المقصورة. أخرج صابر النسخة الشفافة من العقد، لكنه لم يجد مساحة كافية لفتحها. طواها على ركبته، وأغلق عينيه. في الأسفل كان النيل يصغر، وفي الأعلى لمبة قراءة واحدة ظل صاحبها يراجع أوراقًا لا تخص بيتًا جديدًا. نام صابر قبل أن يصل إلى الصفحة التي تتحدث عن المصروفات التي قد تنشأ لاحقًا.

٥ | العودة المؤجلة

مرت أول سنتين في انتظام يشبه حركة الآلات. كل ثلاثة أشهر يحول صابر القسط، وترد الشركة بإيصال وصورة حديثة. تعلم أن يبحث في الصورة عن العمارة التي تخصه، ثم اكتشف أن الصور تلتقط من زاوية واحدة تجعل المباني المكتملة تحجب غيرها. طلب صورة للواجهة الشرقية، فوصلته لقطة لغروب الشمس فوق سور المشروع.

كان في الغروب جمال حقيقي، ولم يعرف لماذا أغضبه. أرسل إلى مروة يسأل عن نسبة الإنجاز. أجابت برقم مكتوب داخل دائرة خضراء. نقل الرقم إلى زياد، فسأله عن تاريخ القياس. شعر صابر أن ابنه يستطيع تحويل أي بشرى إلى واجب منزلي، ثم رأى أن الأسئلة التي كان يضيق بها صارت وسيلته الوحيدة إلى معرفة ما يحدث.

جاء موعد التسليم الأول في شهر استبدلت فيه الشركة شعارها. تغير لون الرسائل، وظهر اسم جديد للخدمة العملاء، وأقيم احتفال بالمرحلة التالية. على هاتف صابر وصل اعتذار مقتضب

عن تأخر مرتبط باستكمال التنسيق بين الجهات. أرفقوا صور الاحتفال. رأى رفعت الكيال يقص شريطاً أمام عمارة لا يعرفها، ووراءه بالونات كثيرة.

حجز إجازة قصيرة وذهب مع زياد إلى الموقع. لم يسمح الحارس لهما بالدخول أولاً لأن الزيارة تحتاج موعداً. وقف صابر عند البوابة، وأراه إيصالات الأقساط المحفوظة على الهاتف. قال الحارس إنه يرى عملاء كل يوم، وإن التعليمات تأتي من المكتب. لم يكن في صوته تحدٍ؛ كان ينظر إلى الرجل ثم إلى غرفة الحراسة التي لا يريد أن يفقدها.

بعد ساعة حضر مهندس شاب واصطحبهما. صعد صابر إلى الدور الرابع على درج بلا درابزين. في الطابق الثالث استند إلى الحائط ليستريح، وترك بصمة رمادية على كفه. عندما وصل إلى شقته، وجد مستطيلاً من الضوء في آخر الممر. كانت الشرفة موجودة، لكن بلا حاجز، والغرف بلا أرضيات، والحمام يحمل أنابيب مفتوحة وفوق إحداها قفاز عامل متيبس. أخرج رسم هالة من محفظته. لم يقارنه بالمشهد، بل أعاده سريعاً كي لا يتسخ. سأل المهندس عن الزمن اللازم، فأجابه بعبرة

«الشغل الباقي بسيط». في الفندق كان البسيط ما يمكن إنجازه بين نوبتين. هنا صار يمتد من عطلة إلى أخرى.

في البيت، عرفت سناء من حذائه أن الزيارة لم تكن كما توقع. خلعه عند الباب حتى لا ينشر التراب، لكن قليلاً منه تساقط في الممر. أحضرت المكنسة، وطلبت منه أن يتركها. قال إنه يريد الاحتفاظ بالحذاء خارج الشقة. لم يسأل أحد عن الشرفة في العشاء.

بعد أشهر، عرض الفندق إنهاء خدمة بعض العاملين الأكبر سناً مقابل تسوية. نظر المدير إلى صابر باحترام حذر، وقال إنه يستطيع البقاء إن أراد. كانت الفرصة التي انتظرها طويلاً تأتي في الوقت الخطأ. طلب أسبوعاً ليفكر، ثم اتصل بالشركة يسأل إن كان الموعد الجديد نهائياً. قال الموظف إنهم يقدرون ظروفه، وإن فريق التسليم سيتواصل قريباً.

وقع صابر أوراق نهاية الخدمة. أعطاه زملاؤه ساعة حائط تحمل شعار الفندق، وقال عطية إن الوقت سيصبح ملكه الآن. وضع الساعة في صندوق صغير، وحملها إلى المطار. كلما مالت الحقيبة سمع دقة خافتة، كأن السنوات التي خرجت من كشوف الرواتب ما زالت تحاول العثور على مكان تتعلق به.

٦ | خمسون في المائة

فتح رسالة التسليم وهو جالس في محل إصلاح أحذية. كان قد عاد إلى مصر منذ خمسة أشهر، وصار يعرف مواعيد انقطاع المياه في البيت القديم. حملته كلمة «التسليم» على الوقوف قبل أن يقرأ بقية الرسالة، فاصطدم رأسه بحافة المظلة. ابتسم الإسكافي وأعاد الحذاء إلى حجره ليثبت نعلًا انفصل عند الكعب.

قرأ صابر المبلغ مرة، ثم وضع إصبعه فوقه وعد الأصفار. مليون ومائتا ألف جنيه، فوق الثمن الذي سدده كاملاً. كُتبت في الجدول عبارة «تسوية تكاليف وتجهيزات التسليم». تحتها مهلة قصيرة للحضور، وتنبيه بأن التأخر قد يؤثر في ترتيب الاستلام. كانت قيمة الشقة الأصلية مليونين وأربعمئة ألف. استطاع أن يحسب النصف دون آلة، لكنه فتح الآلة على الهاتف لعل خطأ ما يظهر.

قال الإسكافي إن عليه أن ينتظر حتى يجف الصمغ. جلس صابر، وفي رأسه كلمة «نصف» تكرر بإيقاع ضربات المطرقة.

نصف العقار، نصف ما جمعه، نصف جديد يضاف إلى حياة لا يستطيع أن يمددها بالطريقة نفسها. دفع ثمن الإصلاح وخرج بالحذاء في كيس، ثم تذكر بعد خطوات أنه يسير بالنعل المؤقت الذي أعطاه له الرجل فعاد يعتذر.

في خدمة العملاء قالت الموظفة إن المبلغ لا يمثل زيادة في سعر الوحدة. طلب أن تسميه شيئاً آخر يستطيع دفعه. أعادت شرح المصروفات: فروق تجهيز، ودعم مرافق، ومساهمات تشغيل، وأعمال تحسين. سألتها أي جزء من هذه الكلمات يساوي باب شقته. قالت إن كل التفاصيل في الكشف، وإن توقيعه على طلب المعاينة يتيح مناقشة بعض البنود.

طلب زياد الكشف على البريد، وحسب النسب في جدول. لم يجد فواتير تفصيلية تشرح القيم. قال لأبيه إنهم يحتاجون إلى سند كل بند. جلس صابر على طرف المائدة يشاهد ابنه يلون الخانات بالأحمر. كان يريد منه كلمة أقصر من الجدول: ادفع، أو لا تدفع. أما الابن فكان يرى أن إعطاء أبيه يقيناً كاذباً خيانة أخرى.

في المساء أخرجت سناء اللعبة المخملية. حملت المفتاح الناعم، ثم وضعت إلى جانبه إيصال سداد آخر قسط. قالت: «هو إحنا

خلصنا تمناها ولا لسه؟» لم يجب. بدأت تتحدث عن بيع الذهب الذي أبقت عليه لزواج هالة، فأوقفها صابر بصوت أعلى مما اعتاد. جمدت يدها، وعاد هو يشرح أن الأمر ليس في الذهب، وأنه لا يريد أن يرسل عمر ابنته إلى المكان نفسه.

وصلته في تلك الليلة رسالة من أحد المشتريين. كان قد حصل على رقه من مجموعة صغيرة على الهاتف. قال الرجل إن الجميع تلقى مطالبات متفاوتة، وإن بعضهم يدفع خوفاً من ضياع ما دفعه. سأله صابر عمن استلم دون رسوم، فلم يجبه الرجل، وأرسل رمز كتفين مرفوعين.

عند الثانية صباحاً فتح صابر العقد. قرأ البند الذي تركه مؤجلاً على الطائفة. كانت الكلمات أوسع من الشيء الذي ظن أنه اشتراه. استدعى ذاكرته ليعرف ما قاله رفعت يوم التوقيع. لم يجد الصوت كاملاً؛ تذكر اليد على الكتف، والقهوة، والمجسم الذي أضاءت نوافذه كلها.

في الصباح كتب رسالة للشركة: «أرجو تحديد ما يلزمي لاستلام شقتي وفقاً لما سددته». راجعها زياد وحذف منها اعتذاراً في أولها. رأى صابر الاعتذار المحذوف، واستغرب أنه كاد يطلب الصفح لأنه يريد مفتاح بيته.

٧ | غرفة العملاء

كانت القاعة أصغر من قاعة المبيعات، والكراسي أثقل. خلف الزجاج موظفان يناديان أرقاماً تظهر على شاشة. سحب صابر ورقة تحمل رقماً، وجلس بين امرأة تمسك حقيبة مدرسية ورجل يضع سماعة واحدة في أذنه. في الركن جهاز ماء، وفوقه ورقة تقول إن الأكواب لدى الاستقبال.

قالت المرأة إن اسمها سامية، وإنها اشترت الشقة بعد وفاة زوجها. لم يطلب منها تفاصيل، لكنها تحدثت كما يتحدث من يخشى أن ينتهي دوره قبل أن يكمل الشرح. ابنها ينقل مدرسته كل عام بناء على موعد تسليم جديد. يحملون الحقيرة إلى المعينة، ثم يعودون بها إلى الحجرة التي يقيمون فيها عند أخيها. فتحت سحابها وأخرجت مستندات بدل الكتب.

أما الرجل ذو السماعة فكان اسمه حسن. عمل في مطعم بالكويت، وعاد ليعتني بزوجته. قال إن الشركة عرضت عليه تقسيط الرسوم الإضافية، بفوائد لا يحب الموظف أن يسميها فوائد. نظر إلى صابر وقال إنه لا يقارن بين عادل وظالم، بل

بين خسارتين، وإن هذا النوع من الحساب يحتاج إلى معدة أقوى من معدته.

نادى الجهاز رقم صابر. أخذ ملفه ووقف أمام الموظف. شرح أنه سدد الثمن كاملاً، وأن المطالبة الإضافية نصف القيمة. هز الموظف رأسه بإيقاع يوحي بأنه يسمع للمرة الأولى. حين انتهى، طلب رقم الوحدة، ثم فتح الشاشة وقال: «دي سياسة الشركة في المرحلة دي».

سأل صابر عن الشخص الذي وضع السياسة. قال الموظف إن عليه تقديم تظلم. طلب نموذجاً، فأعطاه ورقة تطلب منه اختيار سبب واحد من خمسة أسباب مطبوعة. لم يجد بين الخيارات «لا أملك المال» ولا «دفعت ما اتفقنا عليه». اختار «أخرى»، وكتب في المساحة الصغيرة حتى خرج السطر عن الإطار.

عندما طلب صورة مختومة من تظلمه، قال الموظف إن رقم الطلب يكفي. كرر صابر الطلب، فخرجت من الموظف تنهيدة قصيرة. جاء المشرف، رجل في عمر زياد تقريباً، ونظر في الأوراق. عرض تخفيضاً محدوداً بشرط السداد الفوري. قال صابر إنه لم يأت ليفاوض على ثمن جريمة لم يرتكبها. توقف الشاب عن الابتسام، وأعاد إليه الملف بترتيب شديد.

خرج إلى سامية وحسن، فوجدهما قد تبادلا الأرقام. سألاه ماذا حدث. رفع الورقة ذات الرقم، وقال إن له الآن طلباً في النظام. ضحك حسن، لكن الضحكة انكسرت عند سعال طويل. أعطته سامية زجاجة ماء كانت تحملها لابنها.

قبل أن يغادروا، شاهدوا رجلاً يخرج من باب جانبي حاملاً مفتاحاً حقيقياً. لم يهتته أحد فوراً. بدت نظراتهم ثقيلة عليه، فقال متطوعاً إنه باع سيارة ابنه، وأنه لم يعد يحتمل الإيجار. طلب منهم ألا يلوموه. اقترب صابر وصاحفه. كان يعرف أن تحميل الرجل ذنب الباب الذي فتح له لن يفتح بقية الأبواب. في الشارع، عرضت سامية أن تدله على محام تعرفه أختها. اسمه جمال قرقرش، ومكتبه قريب من المحكمة، ويتحدث عن قضايا العقارات بثقة. أعطته الرقم مكتوباً في ظهر ورقة المدرسة. وضع صابر الورقة في المحفظة بجوار رسم الشرفة. في تلك اللحظة لم يكن بين الورقتين نزاع.

٨ | اسم على النحاس

صعد إلى مكتب جمال قرقش في مبنى قديم تعمل فيه ثلاثة مصاعد، واحد فقط يتحرك. فوق الباب لوحة نحاسية لمعها الضوء حتى صعبت قراءة الاسم. في الداخل صورة كبيرة للمحامي يرتدي روباً، وعلى الجدار الآخر شهادات بإطارات متشابهة. وقف صابر ليقرأ واحدة، فخرجت السكرتيرة وسألته إن كان صاحب موعد العقارات.

جلس جمال إلى مكتب واسع لا يظهر سطحه إلا حول موضع يديه. رحب به باسم «الأستاذ صابر»، ثم صار يناديه «الحاج» بعد أن سمع سنوات غربته. تركه يتحدث دون مقاطعة، ودفع إليه علبة مناديل حين خشن صوته. كانت تلك أول مرة منذ رسالة الرسوم يشعر فيها صابر أن الجالس أمامه لا ينتظر أن ينهي كلامه ليفتح شاشة أخرى.

قلب جمال العقد سريعاً، ووضع خطأً تحت بندين. قال إن المطالبة تحتاج إلى فحص جدي، وإن لديه طرقاً للتحرك. استراح صابر إلى كلمة «طرق». أخرج الإيصالات، وصور

الموقع، والرسائل المطبوعة. طلب المحامي أن يترك الأصول، فشد صابر الملف إلى صدره دون قصد. ابتسم جمال وقال إن الصور تكفي الآن.

لم يعده بحكم محدد في الجلسة الأولى. تكلم عن إعلان، وطلب، ومستند ناقص، وإمكان تسوية إذا شعر المطور بجدية التحرك. هذه التحفظات زادت ثقته به؛ بدا رجلاً يعرف أن الورق لا يطيع الحماس. سأله عن الأتعاب، فكتب مبلغاً على قسامة، ثم قسمه إلى دفعتين.

طلب صابر أن يكون الاتفاق واضحاً. كتب جمال ورقة قصيرة تصف دعوى تتعلق بالتسليم والمطالبة المالية، وتذكر أن المصروفات تراجع بحسب المستندات. أشار صابر إلى كلمة «المصروفات»، وقال إنه يحتاج إلى فهمها. شرح جمال أمثلة، ثم تلقى اتصالاً، وأشار بيده إلى السكرتيرة كي تحضر القهوة. حين انتهى الاتصال، كان الحديث قد انتقل إلى مدة الغربة وارتفاع الإيجارات.

دخل زياد متأخراً، بعد أن خرج من عمله. قرأ الورقة وطلب إضافة آلية للإيصالات والتقارير. ضم جمال يديه وقال إن الثقة أساس العمل، لكنه لا يمانع في التوثيق. أضاف سطرًا، ثم قال

للابن مازحاً إنه لو درس الحقوق لأتعب زملاءه. ابتسم زياد ابتسامة صغيرة، واحتفظ بصورة الورقة قبل التوقيع. في نهاية الجلسة، أعطى المحامي صابر موعداً لإحضار التوكيل. وقف معه حتى الباب، وقال إنه سيذهب بنفسه لمقابلة ممثل الشركة. لم تكن هناك ضرورة ليعد بالمقابلة الشخصية، ولذلك اعتبرها صابر علامة عناية خاصة. دفع مقدم الأتعاب، وتسلم إيصلاً عليه ختم بنفسجي.

على السلم قال زياد إن الاتفاق يحتاج إلى مزيد من التحديد. رد صابر بأن المحامي وافق على كل ما طلبه. قال الابن إن الموافقة الشفوية لا تملأ الفراغات. شعر صابر بوخزة مألوقة: الابن يسأله مرة أخرى أن يبطئ عند باب يريد عبوره. قال في حدة إنهم لا يستطيعون فحص الناس إلى الأبد.

توقف زياد عند بسطة السلم، ثم سبق أباه إلى المصعد كي يمسك الباب. عندما وصلا إلى الشارع، أرسل جمال رسالة صوتية قصيرة يقول فيها إنه اطلع على الملف مبدئياً وإن الأمور ستتحرك. شغلها صابر لثناء في البيت. استمعت، ثم طلبت أن تسمعها ثانية، فقد كان في صوته ما يجعل الانتظار يبدو عملاً يقوم به شخص آخر عنهم.

٩ | النسخة الناقصة

أصبح يوم صابر يبدأ بعلامتين صغيرتين تحت رسالة. يفتح الهاتف قبل أن يضع الماء على النار، ويبحث عن تغير اللون. كان جمال يرد أحياناً برسالة صوتية أثناء القيادة، تصل إليها أصوات السيارات أكثر وضوحاً من بعض الكلمات. يحفظ صابر الرسالة ويستمع إليها في المطبخ، ثم يكتب منها ما يظنه موعداً أو طلباً جديداً.

في البداية التزم المحامي بما قال. أرسل صورة إعلان، وصورة غلاف ملف، وورقة تحمل ختماً لا يفهمه صابر. أحس الرجل أنه لم يعد وحده؛ هناك رقم جديد يخصه في مكان رسمي. اشترى حافظة زرقاء، ووضع كل ورقة في جيب مستقل. كتب زياد على أول صفحة جدولاً: التاريخ، الإجراء، المستند، المدفوع.

بقيت خانة المستند فارغة في بعض السطور. إذا طلب صابر إيصالاً، قال جمال إن المندوب لم يعد بعد. وإذا طلب صورة المذكرة، قال إنها تحت المراجعة. لم يكن كل تأخر كذباً،

ولذلك عجز صابر عن تحديد اللحظة التي يتحول فيها التأخر إلى وسيلة. كان يستحي أن يكرر السؤال الذي تلقى عنه إجابة معقولة بالأمس.

ذات صباح طلبت السكرتيرة مبلغاً عاجلاً لمصروفات استكمال الإجراء. أرسل صابر المال، وكتب أنه يحتاج إلى بيان لاحق. بعد أيام، احتاج إلى المبلغ نفسه لإجراء صيانة في البيت القديم، فاستدان من زياد. حاول أن يشرح لابنه أن المال سيعود مع التعويض. قال زياد إنه لا يطالبه بالرد، وإنما يريد أن يعرف لأي شيء دُفع. ضاق صدر الأب، ودافع عن جمال كما لو أن السؤال موجه إلى قدرته على الاختيار.

في نهاية الشهر وصل ملف إلكتروني يحمل عبارة «نسخة كاملة». فتحتة هالة على حاسوبها. وجدت الصفحة الثالثة تقفز إلى الخامسة، وإحدى الصور مقلوبة، وتاريخاً محجوباً بإصبع من صور الورقة. جلست إلى جوار أبيها، وأعادت ترتيب ما أمكن. سألتها إن كان هذا عادياً في ملفات المحاكم، فقالت إنها لا تعرف، لكنها تعرف أن كلمة «كاملة» لا تعني ذلك.

أرسلت قائمة قصيرة بما ينقص. أجاب جمال في اليوم التالي بتحية طويلة وسؤال عن صحة الوالد، ثم قال إنهم سيجمعون

الأوراق عند انتهاء الخطوة القادمة. رأت هالة أن الخطوة القادمة صارت صندوقاً يضعون فيه كل ما لا يصلح الآن. أبتت ملاحظتها لنفسها، لأن أباهما كان يتسم لمجرد أن الرجل سأل عنه.

في مساء هادئ، بحث صابر في حقيبة قديمة عن وصل دفع. وجد بطاقة الفندق التي نسي إعادتها. حملها بين إصبعيه؛ صورتها تظهره بشارب أكثف ووجه أقل امتلاء. كانت البطاقة تفتح باب غرفة آلات لا يملكها، لكنها تفتحه كل يوم. وضعها في جيب الحافظة الزرقاء، ثم أخرجها؛ خاف أن تختلط بالصور التي يعدونها أدلة.

ذهب إلى المكتب دون موعد، فوجد جمال يستعد للنزول. سأله عن الصفحة الناقصة. توقف المحامي عند الباب وقال إنه يحتاج إلى ثقته كي يعمل، وإن مراجعة كل ورقة بهذه الطريقة تعطل الجميع. تكلم بصوت منخفض، لكن السكرتيرة سمعت. شعر صابر بأنه تلميذ يسيء فهم درس، واعتذر عن الجيء في وقت غير مناسب.

في الطريق، اشترى ظرفاً كبيراً ليحفظ النسخة. جلس على مقعد في محطة الحافلة وكتب على الظرف: «أوراق البيت». ثم

شطب كلمة البيت وكتب «القضية». جف الحبر الأول وبقي
ظاهراً تحت الثاني. أعاد الظرف إلى الحقيبة، وأمسكها بين
قدميه حتى جاء دوره في الركوب.

١٠ | باب المحكمة

في أول جلسة وصل صابر قبل الموعد بساعتين. لم يكن حضوره لازماً بحسب جمال، لكنه أراد أن يعرف المكان الذي صار عنوانه الجديد في المراسلات. ارتدى قميصاً مكويًا بيده، ووضع في جيبه حبة نعناع لتجفف رائحة القهوة. عند التفتيش أخرج المفاتيح والهاتف والنظارة، ثم نسي أي جيب وضع فيه بطاقته.

خلف الباب تتوزع الوجوه حول أوراق كثيرة. امرأة ترفع صوتها لتشرح رقم قاعة، ورجل يحمل كيس دواء مع ملف، وشاب بالروب الأسود يراجع أسماء على هاتفه. لم يشبه المكان صور المباني القضائية في نشرات الأخبار. هنا للانتظار رائحة عرق ومطهر، وللوقت خطوات موظف يمر فلا يلحق به أحد. دله عامل النظافة على القاعة، ثم اعتذر لأنه لا يعرف إن كانت الدائرة نفسها باقية في هذا الدور. وجد جمال أمام الباب يتحدث مع محام آخر. حين رآه، عقد حاجبيه لحظة قبل أن يتسّم. قال إنه أخبره ألا يتعب نفسه. أجاب صابر بأنه جاء

ليفهم. ربّت جمال على كتفه، وطلب منه أن يبقى في الخارج حتى يناديه.

جلس على مقعد خشبي. إلى جواره بائع شاي يحمل ترمساً وعلبة أكواب. اسمه عبد الرسول، ويعرف مواضع الشمس في الممر ومتى تزدهم السلام. سأله صابر عن معنى عبارة سمعها، فأجابه بأنه يسمع العبارات نفسها منذ سنوات، لكنه لا يبيع فهمها. قدم له الشاي، ثم أشار إلى رجل بعيد: «ده بيعي قبلي، ويمشي بعدي».

عندما دخل القاعة، رأى القاضي من بعيد خلف رزم الملفات. نودي على أسماء، وتبادل المحامون كلمات سريعة، وتوقف أحدهم لأنه لا يحمل مستنداً. حاول صابر أن يعرف أي الكلمات تخصه. رفع جمال ورقة، ورد محام للشركة، ثم دوّن الكاتب شيئاً. قبل أن يدرك أن الدور انتهى، كان الاسم التالي قد قيل.

خرج جمال وقال إن المحكمة طلبت استكمالاً وتأجل النظر. سأله صابر إن كان طلب الشركة قد رُفض. قال إن الوقت مبكر على هذا السؤال. سأله عما يجب أن يفعله الآن، فأجابه بأن ينتظر

موعداً جديداً. كان صابر قد حمل الأوراق كلها ظناً أن نقص الورق هو الشيء الوحيد الذي يمكنه منعه.

في الممر لحق به شاب بالروب، وسأله إن كان قريب الرجل صاحب الدعوى. عرف أنه الابن الشاب لأحد العملاء الآخرين. تحدثا قليلاً عن الازدحام، ثم قال الشاب إن في القاعة ملفات أكثر مما يحتمله صباح واحد. نظر صابر إلى الباب. لم يستطع من مقعده أن يعرف إن كانت السرعة قسوة أم محاولة للبقاء على رأس بحر من الأوراق.

اشترى شيئاً ثانياً ولم يشربه. مر القاضي من ممر داخلي تحيط به ملفات وموظفون، فوقف صابر دون قصد. أراد أن يقول له جملة واحدة عن الغربة، لكنه بقي مكانه. يعرف أن الرجل لا يسمع الدعاوى بهذه الطريقة، ويكره أن يشعر بأن الجزء الأهم من حياته لا يجد مكاناً في الطريقة الصحيحة.

عندما عاد، سألت سناء ماذا جرى. وضع الملف على المائدة، وخلع قيصه ببطء، وقال: «فيه جلسة ثانية». أخرجت من الدرج ورقة مواعيد الأسرة، وأضافت الموعد الجديد بجوار كشف أسنان زياد. ظل صابر ينظر إلى المسافة الضيقة بين

الموعدين، كأن أحدهما يستطيع أن يزاحم الآخر خارج
الصفحة.

١١ | طابور السنوات

اعتاد الانتظار في الغربة على هيئة مختلفة. انتظار راتب له يوم، وإقامة لها تاريخ، وإجازة تصل مهما تأخرت. أما هنا، فكان الموعد حين يأتي يخلق موعداً يليه. يفتح صابر التقويم ليضع علامة، ثم يجد أن العلامات السابقة لم تؤد إلى شيء يمكن حمله إلى البيت.

تزوجت ابنة سامية في تلك الأثناء. أرسلت إلى المجموعة صورة من الحفل، واعتذرت عن غيابها عن اللقاء التالي للمشتريين. سألها أحدهم إن كانت قد استلمت، فحذفت الصورة بعد دقائق. كتب حسن أن هناك أشياء في الحياة لا ينبغي أن تدخلها أرقام الوحدات. أعاد صابر الصورة من ذاكرته: عروس تبسم أمام ستارة مستأجرة، وأم تحاول ألا تظهر حقيبتها المدرسية في الخلفية.

كان كل فرد في المجموعة يحرس أملاً صغيراً. رجل يعتقد أن مقابلة مسؤول تكفي، وآخر يجمع المشتريين لتوكيل واحد، وثالث ينقل أخباراً عن قرب حل شامل. إذا تحدث أحد عن

الانسحاب، اتهمه آخر بإضعاف الموقف. وإذا دفع عميل بعض المطلوب، خاف من إعلان ذلك. كبرت المجموعة وصارت تضم من يريد إنقاذ ماله، ومن يعرض خدمة، ومن يسأل كثيراً ولا يقول من هو.

كتب حساب مجهول أن المقاضين يضرون بسمعة المشروع ويؤخرون البناء. سأل صابر إن كانت الأوراق التي دفع ثمنها هي التي عطلت الخرسانة. انهالت الردود، ثم أغلق المدير النقاش. جلس الرجل إلى مائدته الصغيرة، وشعر أن حتى الغضب يحتاج إلى تصريح لا يملكه.

في الزيارة التالية للمحامي، وجد صورة جديدة لرفعت الكيال في صحيفة موضوعة على الاستقبال. كان يتحدث عن جذب أموال المصريين بالخارج. قلب صابر الصحيفة، ورأى في الصفحة الأخرى إعلاناً لمركز طبي يعد بالاهتمام الذي يستحقه المريض. كان الوعدان مطبوعين بالألوان نفسها تقريباً.

قال جمال إن التأجيل الأخير مفيد لأنهم يستطيعون تدعيم الطلبات. سأل صابر لماذا لا تدعم منذ البداية. تغير وجه المحامي، ثم شرح أن كل مرحلة لها مقتضياتها. أوماً صابر،

لكنه فتح دفتره هذه المرة وكتب العبارة. لم يعد يستطيع الاعتماد على ذاكرته بعد أن صار للكلام أكثر من نهاية.

عرض عليه عطية، من مسقط، العودة لعمل مؤقت في مخزن الفندق. لم يكن العرض رسمياً؛ مجرد سؤال عن استعداداته. أراد صابر أن يقول نعم بسرعة، لكنه تذكر حقيبة الأوراق ومواعيد المحامي. كيف يغادر في اللحظة التي يقولون إن الملف اقرب؟ وكيف يبقى والمال يتناقص؟ جلس طوال المساء يقلب حساباً لا يملك فيه خانة للسن.

قالت سناء إن العودة إلى العمل ليست هزيمة. أجاب بأن ركبته قد لا تحتملان، وأنه لا يريد أن يراه الأولاد يغادر بحقيبة العامل مرة أخرى. ردت بأنها تفضل حقيبة يعرف مكانها على ملف لا يعرف آخره. ثم اعتذرت عن قسوة العبارة، مع أنها كانت أول ما قالته منذ أشهر دون أن تخففه لأجله.

في اليوم التالي، اتصل بالمحامي وسأله عن مدة متوقعة. ساد صمت قصير، ثم قال جمال إنه لا يحب أن يعطي مواعيد لا يتحكم فيها. احترم صابر صدق الجملة، وخاف أن تكون قد

جاءت متأخرة. أمامه على الحائط ساعة الفندق، تتحرك عقاربها
بدقة لا تبالي بما فقده صاحبها من حساب الأيام.

١٢ | حكم صغير

لم يأت خبر الحكم من المحكمة، بل من رسالة ذات علامة تعجب أرسلها جمال وقت الغداء. «الحمد لله، خطوة لصالحنا». قرأها صابر واقفاً عند الموقد، وترك الإناء يفور حتى نادته سناء. أطفأ النار واتصل. قال المحامي إن هناك تعويضاً محدوداً يتعلق بأحد الطلبات، وإن صورة الحكم ستوضح التفاصيل.

حمل صابر كلمة «لصالحنا» إلى بقية يومه كما يحمل طفل قطعة حلوى في جيبه. اشترى كعكاً في طريقه، ووقف أمام رف أدوات المطبخ يفكر في إبريق للشقة الجديدة. لم يشتريه، لكنه أمضى دقائق يختبر المقبض. في المساء دعا حسن وسامية إلى الشاي عبر الهاتف، كأن الخبر يشملهم جميعاً.

وصلت صورة الحكم بعد أيام. قرأتها هالة أكثر من مرة، واتصلت بصديقة تعمل في مكتب قانوني لتفهم حدودها. المبلغ أقل بكثير من رسوم التسليم، والحكم لا يضع المفتاح في يد أبيها، وهناك طرق للطعن والإجراءات ما زالت ممتدة. جلست

بجواره وشرحت ما استطاعت، فاكشف أن الفرحة التي اشترى لها الكعك تحتاج إلى شروط لم يرسلها أحد معها.

ذهب إلى جمال وسأله عما يمكن تنفيذه الآن. قال المحامي إن الطرف الآخر قد يتحرك، وإن عليهم التفكير في موقف أقوى. رسم ثلاثة أسهم على ورقة: استكمال، ومطالبة أخرى، وطعن. كان صابر يتابع سن القلم، ويتذكر مخططات الصيانة التي يستخدمها في الفندق. في كل مخطط قديم توجد مضخة في النهاية. هنا تخرج الأسهم إلى هوامش الورقة.

سأله عن المبلغ الذي سيدفعه للخطوة التالية. أدار جمال الورقة، وكتب رقمًا، ثم أكد أن هذا لتحسين النتيجة. قال صابر إنه يريد أن يعرف ما إذا كان تحسين النتيجة اختياراً أم طريقاً لا مفر منه. أجابه المحامي بأن من يقبل القليل الآن قد يندم لاحقاً. ظل الرجل يمسح صدغيه بمنديل مطوي، حتى ترك المنديل أثراً من عرق كفه.

في البيت رأى زياد أن القرار لا ينبغي أن يبنى على الخوف من الندم. طلب كشفًا كاملاً قبل أي دفع جديد. غضب صابر هذه المرة دون أن يدافع عن جمال. قال إنه تعب من أن يكون مطلوباً منه فهم كل شيء بنفسه، ثم ضاق بقسوة صوته

على ابنه. ذهب إلى المطبخ، وأعاد غسل كوب نظيف كي يجد ليديه عملاً.

لحقت به سناء ووقفت عند الباب. قالت إنهم لا يطلبون منه أن يصير محامياً، وإنما أن يسمح لهم بحمل بعض التعب. سألتها إن كانت نادمة على الشقة، فأجابت بأنها نادمة على أنهما صارا لا يتحدثان إلا عنها. سقطت منه ملعقة داخل الحوض، وبدأت الرنة أعلى مما ينبغي.

في آخر الليل، فتح الحافظة ووضع صورة الحكم في الجيب الأول. تحتها ظل إيصال الحجز القديم بلونه الذهبي. شعر برغبة في نقل الإيصال إلى الخلف، لكنه تركه. أراد أن تبقى البداية ظاهرة؛ يحتاج أحياناً إلى أن يتذكر أنه لم يدخل الطريق راغباً في الخصومة، وأن هناك يوماً وقع فيه لأن أسرته كانت تريد نافذة.

كتب إلى جمال طلباً مقتضباً: «أرجو بيان الخطوات وما يخص كل خطوة من أتعاب ومصروفات». قرأ الرسالة قبل إرسالها، فوجدها خالية من كلمة «معلش». ضغط الزر، ووضع الهاتف مقلوباً على المائدة. لم يدم ذلك طويلاً؛ أعاده بعد دقائق ليرى العلامتين.

١٣ | دقتر جمال

احتفظ جمال قرقرش بدقتر صغير في درج لا تفتحه السكرتيرة. لم يكتب فيه ما يقوله للعملاء، بل ما يحتاج إلى تذكره قبل مقابلتهم: موعد ابن أحدهم، واسم شركة يعمل فيها آخر، ومرض والد امرأة يتابع لها ملفاً. كان يعتبر التذكر جزءاً من المهنة. حين دخل صابر أول مرة، كتب بجوار اسمه: «مغترب، عاد نهائياً، حساس من ضياع الوقت».

في مساء طلب البيان، فتح الدقتر وأضاف نقطة تحت «الوقت». لم يكن يظن نفسه سارقاً. دفع إيجار المكتب ورواتب العاملين، وسدد التزامات لا يراها الجالس أمامه، واحتاج إلى من يدفع مقدماً كي يظل المكان قائماً. كان يعرف أيضاً كيف يجعل الإجراء الممكن يبدو أقرب إلى الضرورة، وكيف يطيل الحديث عن احتمال مربح حين يكون العائد على المكتب مؤكداً.

مرت عليه ملفات أنصف فيها أناساً بالفعل، وظل يذكرها كلها ألح عليه سؤال يضايقه. من بين عشرات الأوراق على مكتبه

حكم قديم أعاد بيتاً إلى امرأة مسنة. احتفظ بصورتها وهي تبكي أمام المكتب. لم يحتفظ بصورة الرجل الذي سدد له ثلاث دفعات ثم باع حقه لطرف آخر كي ينتهي. قال لنفسه إن ذلك الرجل هو الذي اختار.

اتصل به ممثل رفعت الكيال. أراد معرفة ما إذا كان العميل مستعداً لعرض تسوية. لم يكن بينهما اتفاق خفي يشرح كل شيء بسهولة؛ كان بينهما اعتياد طويل يسمح للكلمات بأن تؤدي أكثر من وظيفة. سأل جمال عن العرض، فأجابه الرجل بأن الشركة تريد إغلاق الملفات الصغيرة قبل حملة مبيعات جديدة. قال جمال إن صابر ليس ملفاً صغيراً، ثم سأل عما يمكن احتسابه من الأتعاب عند التسوية.

بعد المكالمات أرسل إلى صابر رسالة عن ضرورة الحفاظ على مرونة التفاوض. لم يرسل جدول المصروفات. احتاج إلى جمع الإيصالات، وبعضها عند المندوب، وبعض المبالغ جمعها تحت حساب واحد لعدة عملاء. كان تأخير الكشف أسهل من شرح الفروق. أجل الأمر إلى الغد، ثم سحب ملفاً آخر من فوقه.

جاءت السكرتيرة، نجلاء، تسأله عن ورقة ناقصة. كانت تعمل معه منذ تسع سنوات وتعرف متى يبحث فعلاً ومتى ينتظر أن ينسى صاحب الطلب. قالت إن الأستاذ صابر اتصل ثلاث مرات، وإن ابنته تريد الرد كتابة. أشار جمال إلى الدفتر وقال إنه يعرف، وإن الوقت لا يسمح بكل هذه التفاصيل. نظرت نجلاء إلى الساعة؛ كان قد أمضى نصف ساعة يختار صورة جديدة لموقع المكتب.

في اليوم التالي، أعدت نجلاء كشفًا أوليًا من الإيصالات الموجودة. أعادها جمال إلى الملفات، وقال إن الكشف غير مكتمل ولا يصح إرساله. كانت محقة حين أرادت أن يظهر الناقص، وكان محققاً في أن الجدول يحتاج إلى تدقيق. بقي الكشف في المنتصف، وفي الخارج ظل صابر ينتظر ورقة تحمل ما يكفي من الوضوح ليقرر.

قبل إغلاق المكتب، أضاء جمال المصباح الصغير فوق الشهادة التي يجلبها. رأى انعكاس وجهه على زجاجها، وعدل ربطة عنقه. وصله تسجيل من صابر، فتردد قبل تشغيله. كان يعرف أن الرجل سيسأله السؤال نفسه بنبرة أضعف. أغلق الهاتف على وعد بالاستماع صباحاً، وخرج إلى موعد عشاء لم يحتاج إلى تأجيل.

١٤ | صوت في الهاتف

تعلمت سناء صوت جمال دون أن تراه. تعرفه من أول التنحنح، ومن السرعة التي تنتهي بها التحية إلى «بس فيه خطوة». إذا كانت في غرفة أخرى وسمعته من هاتف صابر، توقفت يدها عن تقطيع الحضار. صار للمطبخ منبه لا يعمل بالكهرباء.

وصل التسجيل الجديد عصر الأحد. حمل أخباراً عن تفاوض قريب وإجراء يستحسن ألا يتأخروا فيه. ذكر جمال مبلغاً إجمالياً، ثم خفض صوته عند الحديث عن توزيع المبلغ، لأن الطريق كان مزدحماً بحسب ما قال. استمع صابر مرتين. في الثالثة قرب الهاتف من أذنه، كأن المسافة هي التي أفسدت الحساب.

طلبت هالة التسجيل وفتحت دفترها. كتبت ما فهمته، ووضعت علامة استفهام عند جزئين. قالت لأبيها إن الأفضل أن يطلب بياناً مكتوباً. أرسل صابر الطلب، فجاءه اتصال. تحرك إلى الشرفة القديمة ليتحدث، وبقيت الأسرة في الداخل

تسمع «حاضر» متباعدة. حين عاد قال إن الرجل شرح. سألتته هالة: «شرح إيه بالضبط؟» فحاول أن يعيد الكلام، ووجد أنه يحتفظ بطمأنينته أكثر مما يحتفظ بالأرقام.

لم تتهمة ابنته بالسذاجة. جلست وسألتته عن كل مبلغ على حدة. أخرج من جيبه ورقة كتب عليها أثناء الاتصال. فوق الأرقام كلمات اختلطت بها: «تسوية»، «يتراجع»، «نقدم». رأت هالة أن أباه يحاول أن يحول حديثاً سريعاً إلى حساب، مثلما يحاول رجل التقاط ماء بكفيه ثم إقناع أسرته بما حمل.

في المساء أرسلت هي رسالة مهذبة إلى المكتب، عرفت بنفسها وطلبت نسخة من البيان. رد جمال بتحية لوالدها، وقال إنه لا يناقش ملفات العملاء مع أطراف أخرى دون تفويض. أعطاه صابر الإذن ككاتب. في اليوم التالي قال إن البيان يجمع، وإن المندوب في المحكمة. فتحت هالة صفحة جديدة في دفترها، وكتبت التاريخ دون تعليق.

أحس صابر أن الأسرة أخذت منه شيئاً حين بدأت تتولى المراسلات، ثم اكتشف أنه ينام ساعة أطول إذا لم يفتح الهاتف بنفسه. كان هذا الارتياح يجر معه نجلاً صغيراً؛ قضى عمره يرسل ما يعينهم، وها هم يحتاجون إلى حمايته من رسالة.

رن هاتفه بينما كان يشتري الطماطم. ظهر اسم جمال، فترك الكيس على الميزان وابتعد عن البائع. قال المحامي إن الشركة بدأت تلين، وإن الاستعجال في كشف المصروفات قد يوحى بعدم الثقة في وقت حساس. نظر صابر إلى السيارات، ثم قال بهدوء إنه يريد أن يثق وأن يفهم في الوقت نفسه. صمت جمال لحظة، وبعدها وعده بإرسال بيان خلال أيام.

عاد إلى الميزان فوجد البائع قد أكمل الكيس ووضعه جانباً. كان عليه أن يعتذر لأن رجلاً آخر ينتظر. حمل الطماطم ومشى إلى البيت، محاولاً أن يتذكر نبرة صوته حين قال الجملة. لأول مرة لم يقل «حاضر» قبل أن يسمع نهاية الطلب.

في الليل شغلت هالة تسجيلاً قديماً لترتب التواريخ، فسمعت ضحكة أبيها في خلفية المقطع. كان يسأل عن صحة المحامي قبل أن يسأل عن حقه. أوقفت التسجيل، ونظرت إليه نائماً في الكرسي. لم تكن تريد أن يتحول إلى شخص لا يسأل عن صحة أحد، لكنها لم تعد تعرف كيف تحمي تلك الضحكة من استعمالها ضده.

١٥ | دعوى جديدة

كان عنوان الورقة الجديدة مختلفاً بما يكفي ليشعر صابر بأنهم أمام بداية أخرى. شرح جمال احتمال مسار جنائي، وربطه بما ظهر من مستندات ووقائع. أخذ يستعمل كلمات أشد من تلك التي استخدمها في أول مقابلة. انتقل من التأخر إلى القصد، ومن الخلاف إلى المسؤولية، ومن الانتظار إلى الضغط.

سأله صابر إن كان يقصد أن رفعت سيحاسب فعلاً. رفع المحامي إصبعه وقال إن النتيجة لا تضمن، لكن الجديدة في التحرك قد تغير الحسابات. أعجب صابر بأنه لا يعده بما لا يملك، ثم وجد نفسه مستعداً لدفع مبلغ جديد على أساس الشيء الذي امتنع الرجل عن ضمانه.

كان زياد يريد رأياً آخر. طلب مقابلة محامية اسمها رانية فهمي، تعرفها زميلة له. ذهباً دون الأوراق الأصلية، وشرحا المسألة إجمالاً. استمعت رانية، ثم قالت إنها لا تستطيع تقييم مسار لم تقرأ مستنداته، وإن اختلاف الوصف لا يعني دائماً اختلاف النتيجة. كتبت لهما أسئلة يوجهانهما إلى محاميها: ما

الإجراء المحدد؟ ما المستند الدال عليه؟ ما الأتعاب المقابلة له؟ وما أثر التفاوض على ما دفع؟

أراد صابر أن تسمي جمال محتالاً أو نزيهاً فيرتاح. رفضت أن تفعل. قالت إن تقييم عمل شخص غائب يحتاج إلى أكثر من رواية، وإن حقه في التوثيق لا يحتاج إلى اتهام أحد. خرج وهو يحمل أسئلة أثقل من فتوى تطمئنه، لكنه شعر بالامتنان لأنها لم تحاول انتزاع الملف منه.

عاد إلى جمال بالأسئلة. تغير ترتيب الجلسة كلها. لم تعد القهوة تأتي في أولها، وصار المحامي يتحدث عن عدم إمكان إدارة الملف بواسطة آراء متفرقة. قال صابر إنه لا يدير القضية، بل يسأل عما سيدفعه. كتب جمال اتفاقاً منفصلاً، يتضمن مراحل وشروطاً للتوقف أو العدول. قرأ زياد السطور ببطء، وطلب تحديد ما يعاد إذا لم تنفذ مرحلة.

قبل جمال تعديلاً جزيئاً، وأصر على بند آخر. خرج صابر من المكتب دون توقيع في ذلك اليوم. طوال الطريق ظل يشعر بأن عليه الاعتذار، ثم تذكر أنه لم يرفض دفع ثمن عمل، وإنما رفض أن يدفع ثمن فراغ لا يستطيع تسميته.

بعد أسبوع اتصل جمال يخبره بأن الطرف الآخر يريد لقاءً. قال إن التفاوض قد يغني عن بعض الإجراءات، وإن الأفضل حجز مقدم للعمل إذا فشل اللقاء. حاول صابر أن يرتب الزمن: سيدفع لشيء قد لا يحدث لأن شيئاً آخر قد يحدث. سأل عن المبلغ مرة أخرى، ثم كتب عبارة طويلة دون إرسال.

في البيت اقترحت سناء أن ينتظروا. لم تقل «لا تدفع»، لأن كل خيار صار يحمل لها ذنباً محتملاً. إذا منعتهم وضاع الحق، ستكون سبباً. وإذا شجعتهم واستنزف، ستبقى العبارة في صدرها. رأى صابر خوفها من تقديم النصيحة، وفهم أن الملف لم يأخذ المال وحده؛ أخذ من الأسرة سهولة أن يقول أحدهم للآخر ما يراه.

في اليوم الأخير للمهلة التي وضعها المكتب، أرسل مقدماً أصغر مما طلب جمال. كتب بوضوح الغرض وحدود الموافقة، واحتفظ بالرد. أحس أنه تعلم مهارة متأخرة، لكن الأجر الذي دفعه لتعلمها كان يخرج من الأشهر التي ادخرها للراحة.

١٦ | جلسة على مقهى

اختير المقهى لأنه قريب من المكتب ولا يحمل اسم أي طرف. طاولاته مستديرة، وفيه شاشة تعرض مباراة قديمة بلا صوت. وصل صابر ومعه زياد، فوجد جمال يجلس مع رجل يعرفه من مكتب الشركة. قدمه باسم شريف، مسؤول التسويات. وقف الرجل وصاحف بجرارة لا تناسب الشهور التي لم يرد فيها على رسائلهم.

قال شريف إن الشركة تريد طي الصفحة، وإن رفعت الكيال مهم شخصياً بإنهاء الحالات الإنسانية. انتبه صابر إلى الوصف. كانت حالته في أول الأمر استثماراً محترماً، ثم صارت عميلاً متظلماً، والآن حالة إنسانية. سأل أي جزء من العقد احتاج إلى أن يشيخ هو كي يصلح للتفاوض.

تدخل جمال ليلطف العبارة. طلب أن يبدأوا بالأرقام. فتح شريف ملفاً وأخرج عرضاً لا يحمل توقيعاً. تخفيض لبعض المطالبات، وتقسيت للباقي، مع إقرار بالتسوية النهائية. قرأ زياد الإقرار، وتوقف عند شمول جميع المطالبات الحالية والمستقبلية.

قال إنهم لم يروا بعد ما سيسلم، وإن مستقبل الشقة لا ينبغي أن يدخل في جملة لا تحدد عيوبها.

أعاد شريف الورقة إلى الملف، وقال إن الصياغة معيارية ويمكن مناقشتها. طلب جمال أن يسمعوا روح العرض قبل التثبت بالحروف. نظر إليه صابر طويلاً. كانت الحروف هي الشيء الذي دفع له كي يتثبت به. في الشاشة رفع لاعب كأساً قديمة وسط جمهور لا يسمع أحد هتافه.

عرض شريف أن يتيح المعاينة أولاً إذا أظهروا حسن النية بدفعة. سأل صابر كيف يدفع مقابل معرفة ما إذا كان الشيء الذي دفع ثمنه صالحاً. اتكأ شريف إلى الخلف وأخبره أن العمال والموردين يريدون أموالهم أيضاً، وأن الأسعار تغيرت، وأن أحداً لم يكن يتوقع ما حدث. عرف صابر أن بعض ذلك قد يكون صحيحاً. كان يريد أن يعرف لماذا تتوقف سلسلة التوقعات كلها عند محفظته.

قال جمال إن القضية ستستغرق وقتاً، وإن العمر له حساب. رأى زياد وجه أبيه عند سماع الكلمة. لم يعد الوقت في الجلسة ظرفاً يمر، بل حجة يرفعها الآخرون أمامه. دفع الابن الورقة إلى

منتصف الطاولة، وقال إنهم سيردون بعد تسلم نسخة مكتوبة ومحددة.

طلب شريف ألا يصوروا العرض، فهو داخلي حتى يعتمد. أغلق زياد كاميرا الهاتف التي لم يكن قد فتحها. أما صابر فأخرج قلعه وكتب ما فهمه في دفتره. راقب شريف القلم، ثم قال إن الرقم قد يتغير. توقف صابر عن الكتابة، وسأله عما يستطيع أخذه معه إذن. ابتسم الرجل دون إجابة.

انتهت الجلسة بمصاحفات، وبوعد من جمال بأن يصوغ نقاطاً مقبولة. أصر شريف على دفع الحساب. كانت هذه أول مرة منذ زمن يعرض فيها أحد أن يدفع شيئاً أمام صابر. حين خرجوا، بقي زياد على الرصيف ينتظر سيارة. قال الأب إن الرجل لم يكن فظاً. رد الابن: «أنا عارف». ثم سأله إن كان ذلك يجعل العرض أقل غموضاً.

في البيت كتبت هالة ملخص اللقاء من ملاحظات أبيها. قرأه صابر وقال إن النبذة كانت أهدأ مما يظهر في الورقة. أضافت في السطر الأول: «عُقد اللقاء في أجواء ودية». نظر إلى الجملة وشعر أنها صحيحة، ثم رأى أن الود يمكن أن يملأ مساحة واسعة دون أن يحدد موعداً لتسليم مفتاح.

١٧ | الشقة البديلة

بعد ثلاثة أسابيع من جلسة المقهى، ظهر في الحديث بيت آخر. قالت رسالة جمال إن هناك اقتراحاً عملياً قد ينهي المأزق: نقل التعاقد إلى شقة جاهزة في مشروع أصغر، مع إجراء تسوية حسائية. لم تكن للشقة الجديدة صلة بالوحدة التي اشتراها صابر سوى أنها تحتاج هي الأخرى إلى توقيع.

ذهب لمعاينتها مع سناء هذه المرة. أصرت على الحضور لأنها تعبت من البيوت التي تعرفها من صور. كان المبنى مأهولاً جزئياً، وفي مدخله دراجة طفل وحذاء عامل. شعرت بارتياح أولي إلى الفوضى الصغيرة؛ الحياة لا ترتب أحذيتها كما ترتب مكاتب المبيعات مجسماتها.

استقبلهم حارس اسمه هاني. فتح الشقة، ثم تنحى عن الباب وتركهم يتجولون. المطبخ أضيق، والشرفة تطل على جدار مبنى مجاور، لكن هناك حنفية يخرج منها ماء. جرب صابر المفتاح الكهربائي، فأضاءت لمبة عارية. ضحكت سناء لأنها فرحت بضوء لا يحتاج إلى وعد.

في الحمام وجدت رطوبة أسفل الحائط. سألت هاني، فقال إنها من تجربة تمديدات قديمة، وإنه ليس مهندساً ليحكم. قدر صابر صراحته. ظل يفحص الأرض كما يفحص مغسلة جديدة في العمل؛ أصوات المواسير، وانحدار البلاط، ومكان الوصول إلى المحبس. لأول مرة يعرف شيئاً أكثر مما يعرف موظف العرض.

قالت سناء وهي تقف في الصلاة إنهما يستطيعان العيش هنا إذا كانت الأوراق واضحة. كانت العبارة كريمة إلى حد أوجعه. تحملت تقليص حلمها دون أن تطلب منه أن يعترف بالفشل. تخيل الكنبه في الركن، ثم تذكر أن الظل لن يترك الشرفة حتى بعد الظهر. رسم هالة القديم يواجه شمساً لا تدخل هذا المكان.

حين وصلت التسوية، اكتشفوا أن «الجاهزة» لها حسابات إضافية: فرق قيمة، ومبالغ مستحقة لاحقاً، وإقرار بإنهاء نزاعات سابقة. لم يكن نقل المدفوعات واضحاً، وبعض البنود تحيل إلى كشوف لم ترفق. طلب زياد جدول مقارنة كاملاً. رد شريف بأن الإطالة قد تفقدهم الفرصة.

اتصل هاني بعد يومين، متردداً لأنه حصل على رقم صابر من سجل الزيارة. قال إنه وجد مسماراً بارزاً في باب الشرفة

وأصلحه، وإنه أحب أن يبلغه إن جاء مرة أخرى. شكره صابر، ثم سأله كم شقة سكنت بالفعل. أعطاه الحارس عددًا تقريبيًا، وأضاف أن المصعد يتوقف أحيانًا حين ينقطع الماء. لم يقل له إن المدينة مثالية ولا إنها نفخ؛ وصف صباحاته كما يعرفها.

ذهب صابر وحده إلى المبنى مرة أخرى. وقف في المدخل يسمع امرأة تنادي طفلًا من فوق، ورائحة بصل يصفر من شقة. كاد يتصل بجمال ليقول إنه يقبل. في تلك اللحظة خرج عامل يحمل بابًا معوجًا من شقة أخرى، وسأله إن كان المالك الجديد. قال صابر إنه لا يعرف بعد.

عاد إلى البيت وصار صامتًا. وضعت سناء المفتاح الرمزي على المائدة، وقالت إنهما يستطيعان التخلي عن صورة الشرفة، لكن عليهما أن يعرفا ثمن التخلي. نظر إلى المفتاح بلا أسنان، ثم وضعه بعيدًا عن أوراق التسوية. قال إنه سيطلب نسخة مكتملة قبل أي قرار. كانت الجملة صغيرة، لكنها كلفته ليلة أخرى من تخيل غرفة لا يملكها.

١٨ | البياض في العقد

قرأوا مسودة العقد على مائدة الطعام. أمسكت سناء بالقلم الأحمر الذي تستخدمه لوضع علامات على أكياس التجميد، وأخرجت هالة أوراقاً لاصقة، وفتح زياد الحاسوب. جلس صابر في رأس المائدة، يشعر أنه يحضر درساً أقامته الأسرة من أجل خطأ لا يريدون تسميته.

قالت هالة إنها ستبحث عن الأشياء التي يمكن فهمها دون تخصص. أين تاريخ التسليم؟ أي جزء يثبت المبلغ المحول من الحساب السابق؟ كيف توصف حالة الشقة؟ قرأ زياد الجمل الطويلة، ثم طلب أن يقسموها. عندما تنتهي الجملة بعد نصف صفحة، ينسى صابر أي شيء وافق عليه في بدايتها.

وجدوا سطرًا فارغًا في موضع التاريخ، ووصفًا لا يطابق الطابق الذي زاروه، وإحالة إلى لائحة غير مرفقة. لم يثبت ذلك وحده سوء قصد، لكنه أثبت أن الورقة لا تصلح بعد لأن تحمل توقيعًا يغير كل شيء. جمعت هالة الملاحظات في صفحة قصيرة، وأرسلتها إلى جمال.

اتصل المحامي وقال إن بعض الطلبات تفصيلية أكثر مما يلزم، وإن الشركة لا تعيد صياغة نموذجها لكل عميل. قرأت له حالة السطر الفارغ. سكت، ثم قال إن التاريخ سيستكمل. سألته لماذا لا يستكمل قبل أن يوقع الأب. قال إنهم سيجلسون جميعاً عند الإبرام. أغلقت المكالمة بعبارة شكر، وبقيت تنظر إلى الخانة البيضاء.

في الأسبوع التالي، وصلت نسخة بعنوان «نهائي بعد التعديل». فتحتها حالة وهي في العمل، وقارنت المواضيع التي علمتها. لم يتغير التاريخ، والطابق نفسه، والإحالة نفسها. ظنت أولاً أنها فتحت الملف القديم، فنزلته ثانية. اتصلت بأبيها وطلبت ألا يذهب إلى الشركة غداً قبل أن يعود زياد.

غضب صابر من الخبر بطريقة أخافته. ضرب كفه على المائدة، فانقلب كوب ماء فوق بعض الصور. أسرع سناء بالنسج، بينما ظل هو يحدق في الماء. اعتذر مرتين، ثم أخذ ينشف الطاولة بنفسه. قال إنه لم يعد يحتمل العودة إلى النقطة نفسها وهو أبطأ في كل مرة.

أرسل زياد رسالة توضح أن النسخة لا تظهر التعديلات المطلوبة. جاءه رد يقول إن الملف أرسل بالخطأ، وإن النسخة

المعدلة ستجهز. لم تكن هناك نسخة أخرى في الرسالة. حاول صابر أن يراها سقطت موظف، ثم عجز عن إيجاد ما يطمئنه إلى أن أخطاء الموظفين لا تخرج دائماً في اتجاه واحد.

في المساء جلست سناء تعيد الصور إلى الحافظة. توقفت عند صورة هالة وهي صغيرة بجوار ترعة القرية، تحمل حذاءين وتضحك. كانت الصورة قد دخلت الملف لأن الأب استعمل ظهرها قديماً للكتابة رقم عميل. مسحت سناء قطرة بقيت عليها، وقالت إنهم يجب أن يفصلوا الصور العائلية عن الأوراق. رد صابر أن الأوراق دخلت في كل شيء قبل أن يجدوا وقتاً لفصلها.

نقل رسم الشرفة إلى علبة الساعة، وأبقى العقود وحدها في الحافظة. في الليل فتحها ليقراً مرة أخرى. كان البياض في خانة التسليم واضحاً تحت ضوء المصباح؛ مساحة صغيرة تتسع لكل السنوات التي لا يحددها أحد. ترك القلم بعيداً هذه المرة. صار يعرف أن ملء الفراغ بالتوقيع لا يحوله إلى موعد.

١٩ | الذين ينتظرون

في يوم زيارة آخر، جلس صابر إلى حسن أمام مخبز قريب من المحكمة. أحضر حسن ساندويتشين في ورق، وقال إن الشاي هناك أرخص من الممر. كان قد باع سيارته، ويعمل بضع ساعات في مخزن صديق. سأله صابر إن كانت القضايا تسير، فأشار الرجل إلى نعله المتآكل وقال إنها تسير أكثر منه.

تحدثا عن الغربة دون ذكر المال أولاً. وصف حسن رائحة المطعم بعد الإغلاق، وكيف يبقى زيت القلي في ملابسه حتى بعد الغسل. قال صابر إن المغاسل تعرف روائح الناس أكثر من وجوههم. ضحكا وهما يتذكran أطعمة كانا يتقاسمانها في غرف ضيقة، ثم عاد الصمت حين وصلا إلى الكلام عن العودة.

جاءت سامية ومعها ابنا عمرو. كبر الصبي منذ لقائهم الأول وصار يحمل الحقبة بنفسه. كان لديه امتحان بعد الظهر، فقرأ كتاباً على الرصيف بينما تقارن أمه الأوراق. قالت إنها حصلت على جزء من كشف المصروفات من محامياها، واكتشفت أن

بعض ما ظنته إيداعاً كان مقدماً أتعاب. لم تقل إنه سرقها، بل إنها لا تعرف بعد أين انتهى كل مبلغ. كان عدم المعرفة كافياً لارتجاف يدها.

اقترح حسن جمع أسئلة مشتركة، وإرسالها كتابة إلى الشركة. رفض رجل في المجموعة لأنه يخشى أن يؤدي الطلب الجماعي إلى تعطيل تسويته الخاصة. وافقه آخر، ثم اتهم ثالث الجميع بأنهم يريدون حلاً على حسابه. رأى صابر كيف تعمل الندرة فيهم: مفتاح واحد متخيل يكفي ليحول الجالس إلى متنافسين قبل أن يصل أحدهم إلى الباب.

في ذلك اليوم جاء رجل اسمه أمين، لم يروه من قبل. قال إنه يستطيع ترتيب مقابلة عليا مقابل «مصاريف حركة». لم يحدد جهة، ولم يبرز ما يثبت صفته. أخذ يتحدث عن معرفة طرق مختصرة، وينظر إلى الملابس والساعات قبل أن ينظر في الملفات. قال له صابر إنه لا يملك مالا لطريق لا يظهر على ورقة.

ضحك أمين وقال إن الورق هو الذي عطلهم. ظل حسن صامتا حتى غادر الرجل، ثم اعترف بأنه فكر لحظة في التجربة. نظر إلى صابر كأنه ينتظر لوماً. قال صابر إنه فكر أيضاً. لم

يتبادلا نصيحة كبيرة؛ أكلا ما بقي من الساندويتشين، وترك كل منهما للآخر حق أن يكون متعباً دون أن يصير مذنباً. طلب عمرو من أمه أن تشتري له ماء قبل الذهاب إلى الامتحان. فتحت الحقيبة، وبذل أن تجد زجاجة أخرجت أصل عقد. ضحك الصبي، ثم سكت حين رآها تبحث بعصبية. قام صابر واشترى الماء، واحتفظ له بالباقي. كانت هذه مساعدة يعرف مقدارها ووقتها، ولذلك شعر براحة لم يعرفها منذ أشهر.

في العودة، توقف عند مدرسة قديمة تنتظر أمامها أمهات. تذكر هالة في صورتها ذات الحذاء المرفوع، وزياد حين كان يناديه من شاشة صغيرة. أصابه ندم لم يستطع توجيهه إلى أحد: لو لم يشتري، هل كان سيحتفظ بحياته؟ ولو لم يغترب، هل كان سيمنح أولاده ما منحهم؟ ترك السؤالين يسيران معه حتى البيت، دون أن يسمح لأحدهما أن يدعي أنه الجواب الوحيد.

٢٠ | بريد بلا مرفقات

وصلت الرسالة في السادسة واثنى عشرة دقيقة. عنوانها: «مستندات الملف المطلوبة». فتحتها هالة بسرعة، فوجدت تحية وثلاثة أسطر تؤكد أن المرفقات توضح كل شيء. لم يكن تحت الرسالة أي ملف. ضغطت تحديث الصفحة، ثم فتحتها من هاتف أبيها، وبقي البياض في الأسفل كما هو.

ردت تطلب إعادة الإرسال. بعد ساعة جاءها صوت جمال يقول إن الإنترنت في المكتب ضعيف، وإنها تستطيع الحضور لاستلام نسخة. عرضت أن يأتي زياد، فطلب موعداً آخر لأن الأوراق معه خارج المكتب. كتب صابر أن أي موعد محدد يناسبه. لم تصل إجابة تلك الليلة.

صار للملف منطق لا يفهمه إلا بعد أن يشتري أدواته. اشترت هالة ذاكرة صغيرة لتحفظ النسخ، وتعلمت أن تسمي كل ملف بتاريخ وصوله. فتح زياد جدولاً للمدفوعات، ووضع بلون مختلف ما لم يصل عنه إيصال. أما سناء فصارت تحفظ رسائل

المواعيد في درج مستقل، بعد أن كادت ترمي ورقة مهمة مع قائمة البقالة.

حاول صابر أن يساعدهم بالذاكرة. قال إن مبلغاً أرسله في شهر بارد، وإن جمال طلب آخر يوم كان المطر فيه غزيراً. احتاج الجدول إلى تاريخ ورقم، فجلس يستعيد الملابس التي كان يرتديها والمكان الذي سحب منه المال. ضاعت من ذاكرته أسماء معاملات يعرف أُلها جيداً. شعر أن عليه أن يثبت لنفسه أيضاً أنه دفع.

جاء حسن في المساء يحمل حلوى بسيطة. أخرج من جيبه قصاصة كتب فيها اسم موظف يستطيع شرح بعض المصطلحات بمقابل معلن. قال إنه لم يعد يريد وسيطاً يعرض النتيجة، بل شخصاً يشرح ما أمامه. جلسوا إلى المائدة، وقرأ زياد بعض الأوراق بصوت عال. لأول مرة حضرت سناء الجلسة كلها، وسألت سؤالاً توقفوا عنده: «إذا كان البيت خلص، ليه كل اللي ببيجيلنا ورق؟»

لم يستطع أحد أن يجيب دون شرح طويل. أحضر صابر الشاي، ووزعه بنفسه، ثم جلس. رأى في وجه حسن شيئاً من وجه زميله عطية حين يغلبه النوم بعد العمل. كان التعب

القديم يملك نهاية كل مساء؛ التعب الجديد يجلس معهم ويستمتع إلى نفسه.

في اليوم التالي، أرسلت نجلاء من رقم المكتب ثلاث صور، وأشارت إلى أن بقية النسخة ستلحق. كانت إحدى الصور هي الإيصال الذي طلبه صابر منذ شهر. شكرها، ثم سأل إن كانت تستطيع إرسال كشف مرتب. كتبت أنها تنقل ما يسلم إليها، ولا تملك الملف كاملاً. احتفظ بالرسالة دون أن يطلب منها أكثر.

عندما اتصل جمال، لم يذكر الصور. قال إن الشركة لا تزال تنتظر موقفهم من العرض، وإن التأخير قد يفسر بأنهم غير جادين. فتح صابر الهاتف على عنوان الرسالة بلا مرفقات، وسأله متى يصبح طلب الورق علامة جدية أيضاً. أخذ المحامي نفساً عميقاً، وقال إنهما يحتاجان إلى جلسة تصفية حساب.

أغلق صابر الخط، وكتب الموعد الجديد في التقويم. لم يرسم دائرة حوله. وضع نقطة صغيرة فقط، ثم أغلق الدفتر. كانت الدوائر القديمة كثيرة، وصار يريد أن يترك مساحة لشيء آخر، حتى لو لم يعرف ما هو بعد.

٢١ | زيارة رفعت

لم يتوقع صابر أن تأتي الدعوة من الشركة نفسها. اتصلت مروة بعد انقطاع طويل، وقالت إن المهندس رفعت الكيال يستقبل عددًا محدودًا من العملاء للاستماع إلى ملاحظاتهم. عرف صوتها قبل أن تقول اسمها. سألها عن صحة والدتها التي كانت قد ذكرت مرضها يوم الحجز، فارتبكت لحظة، ثم قالت إنها بخير.

ذهب بملف خفيف، فيه ثلاث أوراق فقط: العقد، وما يثبت السداد، والمطالبة الإضافية. أراد أن يرى رفعت المسافة القصيرة بين الاتفاق والمبلغ الجديد. عند الاستقبال طلبوا ترك الهاتف مغلقًا. وضعه في جيبه، وأمسك الأوراق بيده، وأخذ يتابع حركة الموظفين الذين يتكلمون بخفة كأن المكان لم يرسل إليه أي رسالة منذ سنوات.

استقبله رفعت في غرفة تطل على طريق واسع. من النافذة تظهر لوحة إعلانية للمشروع، فيها شرفة مأهولة بنباتات لم ير مثلها في الموقع. صاحفه المطور وقال إنه يعرف ملفه، ثم سأله

عن اسمه. أجاب صابر بهدوء، وجلس قبل أن تضع السكرتيرة القهوة.

تكلم رفعت طويلاً عن ارتفاع التكاليف وتعثر الموردين وتحديات البناء. كانت بعض الحسابات مفهومة لرجل عمل في صيانة الآلات، ويعرف أن قطعة غيار واحدة قد تتضاعف كلفتها. سأل صابر لماذا تحولت مخاطرة الشركة إلى فاتورة على المشتري بعد اكتمال السداد. فتح رفعت ذراعيه وقال إن العقود لا تعيش خارج الواقع.

وضع صابر الأوراق الثلاث أمامه. قال إن حياته هي الأخرى لم تعيش خارج الواقع: كبر، وخرج من العمل، وصار لكل شهر انتظار ثمن لا يظهر في كشف الشركة. نظر رفعت إلى ورقة السداد، ثم أزاحها قليلاً كي يضع فنجانه. سحبها صابر قبل أن يلمسها أثر القهوة. اعتذر المطور، وانقطع الكلام للحظة.

عرض رفعت لجنة خاصة لمراجعة الحالة، وسأل إن كان صابر يستطيع دفع مبلغ مبدئي. قال الرجل إنه لم يعد يريد رقماً يقود إلى رقم. طلب تحديد ما ستسلمه الشركة ومتى وما يثبت انتهاء المطالبات. أجاب رفعت بأن التشدد يضيع فرص الحل، وأن

بعض المحامين يتغذون على إطالة النزاع. سمع صابر الجملة وكأنها حجر ينقله كل طرف إلى يد الآخر.

ذكر له رفعت اسم جمال، وقال إنه يتفاهم معه جيداً. لم تكن العبارة دليلاً على شيء، لكنها جعلت صابر يشعر بأن الغرفة تعرف طريقاً لم يدخله. سأله إن كان التفاهم قد أنتج ورقة يستطيع أخذها. ضغط رفعت على زر المكتب، وطلب من شريف متابعة الموضوع.

عند الباب، قالت مروة إنها تتمنى أن ينتهي الأمر قريباً. نظر إليها وسأل إن كان المفتاح الذي أعطته له يوم الحجز ما زال يوزع على العملاء. لم تفهم أولاً، ثم احمر وجهها. قالت إن الهدايا تغيرت. أراد أن يقول شيئاً قاسياً، لكنه تذكر ارتباكها عند السؤال عن أمها، واكتفى بالشكر.

خرج إلى الطريق الواسع. كانت سيارة غسيل تلمع الرصيف حول المكتب، والماء يحمل الغبار إلى فتحة ضيقة. وقف حتى ابتعدت السيارة، ثم اتصل بزياد. سأله الابن ماذا عاد معه. نظر إلى الأوراق الثلاث في يده وقال: «نفس اللي رحت بيه». انتظر في الشمس سيارة لا تعرف هي الأخرى رقم العمارة التي يريدها، فاضطر إلى إرسال الموقع مرة أخرى.

٢٢ | العودة إلى الغربية

أعاد صابر فتح هاتف عطية بعد أشهر من تجاهل العرض. لم يطلب وظيفة مباشرة؛ سأل عن المغسلة وعن العمال الذين غادروا. قال عطية إن الآلة الجديدة سريعة، لكنها تتوقف إذا لم ينظف أحد مرشحها كما كان يفعل. شعر صابر بسرور صغير، ثم خاف من أن يكون أقصى ما بقي من سنواته أن آلة تفتقد عاداته.

سأل أخيراً عن عمل المخزن. أجابه عطية بأن الفرصة ذهبت، لكنه سيبحث. قالها دون شفقة، ولهذا استطاع صابر أن يكمل الحديث. تكلم عن الأجور والسكن، ثم سأل إن كانت غرفته القديمة ما زالت كما هي. قال عطية إن رجلاً شاباً يسكن السرير الآن، وقد علق عنده صورة لابنته.

عند إغلاق الخط، جلس طويلاً أمام حقيبة السفر. أخرج منها القميص الذي استقبل فيه الشركة أول مرة، فوجده أوسع قليلاً مما يتذكر. لم يقرر إن كان قد نقص وزنه أم أن القماش

استسلم للسنين. جرب الحذاء، فاحتاج إلى كرسي كي ينخي.
كان جسده يفاضه بشروط لا يستطيع إرسالها إلى محام.
رأته سناء، وسألته إن كان يخطط للسفر. قال إنه يستفسر.
جلست إلى جواره ولم تمنعه. قالت إنها لا تعرف أيهما أهون،
أن تودعه مرة أخرى أو تراه يظل قرب الهاتف كأن الطائفة
ستخرج من الشاشة. اعتذر عن السنوات التي مرت وهي
تنتظر، فهزت رأسها وقالت إن الاعتذار لا ينبغي أن يصبح
عملاً إضافياً عليه.

في الأسبوع التالي، عرض عليه جار أن يعمل مؤقتاً في صيانة
أجهزة مغسلة صغيرة. ذهب وفحص الآلة، وسمع الصرير الذي
يعرفه. طلب قطعة رخيصة وشد السير، فتغير الصوت. وقف
صاحب المغسلة يبتسم، وسأل عن الأجر. ذكر صابر رقماً
متواضعاً، فأعطاه الرجل أكثر قليلاً وقال إنه وفر عليه يومين
من التوقف.

حمل المال إلى البيت في جيب مختلف عن جيب أوراق
القضية. اشترى سمكاً لسناء لأنها تحبه، وحلوى لابن الجيران.
تلك النقود الصغيرة لها أصل واضح، وشيء ملموس يبررها، ويد

يمكن مصافحتها بعد الدفع. نام تلك الليلة قبل أن ينتظر رد جمال.

لكن العمل لم يتكرر بما يكفي. وركبته لا تساعدانه في الصعود إلى الأماكن الضيقة، وكتفه يخذه إذا طال رفع الذراع. صار يقبل ما يقدر عليه، ويتجنب وصفه أمام أولاده بالفشل. كانت هالة تدفع بعض الفواتير، وكان يتظاهر بأنه سيعيد المبلغ أول الشهر، مع أنه لم يعد يملك أول شهر ينتظره راتب.

جاءه من عطية خبر بأن صاحب العمل لا يريد عاملاً في سنه. قرأ الرسالة، ورد بالدعاء له ولأسرته. لم يطلب أن يعيد المحاولة. أغلق حقيبة السفر ووضعها فوق الدولاب، ثم احتاج إلى مساعدة زياد لرفعها. وقف الابن خلفه وأسندها قبل أن تقع، ولم يقل شيئاً عن خفتها.

في المساء نزع صابر بطارية ساعة الفندق. لم تكن قد تعطلت؛ كانت دقائقها توقظه حين ينام على الكرسي. وضع البطارية في درج المنضدة، وأبقى الساعة معلقة. اكتشفت سناء في الصباح أنها تشير إلى الثالثة وسبع دقائق، فظنت أنه سيصلحها لاحقاً. لم تخطر لهما حاجة إلى إصلاح شيء يعرف تماماً كيف يستأنف الحركة.

٢٣ | ثمن الوقت

أحضر جمال كشفاً من صفحتين في جلسة تصفية الحساب. رص فيه أرقاماً وعناوين مختصرة، ووضع بعض المصروفات تحت بند «متابعة وانتقالات». قرأه زياد، وسأل عن مبالغ لم يجدها فيه. قال المحامي إنها تخص مراحل أخرى، وسيصدر عنها كشف مستقل. ضم صابر الورقتين، وشعر أن الحساب يستطيع الانقسام كلما اقترب من نهايته.

سأل عن مقدم الإجراء الذي لم يتخذ بعد. أجاب جمال بأن تحضيره استغرق وقتاً، وأن المقابل لا يخص الورقة التي تقدم وحدها. وافق صابر على أن الوقت عمل، ثم سأل عن وقته هو. لم يرفع صوته. لهذا بدا السؤال أكثر إزعاجاً من الشكاوى التي اعتاد المحامي سماعها.

قال جمال إن موكله كثيرون، وإن الجميع يعاني. أشار زياد إلى أن كثرة المعاناة لا توضح حساباً واحداً. تدخل صابر كي لا تتحول الجلسة إلى خصومة بين الرجل وابنه. طلب تحديد ما أنجز، وما لم يُنجز، وما سيدفع إذا استمروا، وما سيستلم إذا أراد

نقل الملف. كتب جمال ملاحظات على الهامش، ثم وعد بتجميع النسخة خلال أسبوع.

في الخارج، قالت نجلاء بصوت منخفض إن بعض الصور ستكون جاهزة غداً. شكرها صابر، ولم يحملها سؤالاً عن الباقي. عرف أنها تخشى أيضاً أن تعد بما لا تملكه. حين نزل السلم، شعر بدوار خفيف، فجلس على البسطة. قال لزياد إنه يحتاج ماء، وبعد دقائق أصرا على العودة إلى البيت بدل الذهاب إلى الشركة.

نصحته سناء بالكشف الطبي. أجاب بأنه سيذهب بعد إنهاء موضوع الأوراق، فوضعت أمامه علبة دوائه وسألته متى سيصبح انتهاء الموضوع موعداً معروفاً. كان يتابع مع طبيب منذ سنوات، لكنه صار يؤجل الزيارات ويختصر الحديث عن التعب. لا يريد أن يفتح حساباً جديداً، ولا أن يسمع كلمة تذكره بأن جسده لا ينتظر المحكمة.

ذهب أخيراً إلى عيادة صغيرة. سأل الطبيب عن نومه وضغطه وطعامه، وطلب متابعة وخصوصاً تناسب حالته. أحضر صابر أوراق العقار إلى الموعد دون أن ينتبه، فأعادها الطبيب إلى

الحقيبة وقال إنه يريد أوراق الصحة الآن. ابتسم الرجل، ثم شعر بعينه تدمع من خفة العبارة.

في البيت وجد رسالة عن موعد آخر للمرافعة. فتح دفتره ليضيفها، فتوقف عند صفحة قديمة فيها أرقام التحويلات الأولى. كانت الكتابة يومها أكثر ثباتاً. لاحظ أنه صار يضغط على القلم ليكمل الحروف، وأن اسمه في نهاية الرسائل أقصر مما اعتاد.

طلبت هالة أن يقضوا يوم الجمعة خارج البيت. ذهبوا إلى حديقة عامة، وجلس صابر على مقعد قريب من طفل يحاول تعلم الدراجة. سقط الطفل، ثم نهض غاضباً من الأرض، وأصر أن أحداً دفعه. ضحك صابر للمرة الأولى من قلبه منذ أسابيع. أخرجت هالة هاتفها والتقطت صورة، ثم أبقته عندها ولم ترسلها إلى أي مجموعة.

حين عادوا، وجد اتصالين من جمال. كان على وشك الرد فوراً، لكن سناء طلبت أن يكمل الشاي أولاً. وضع الهاتف بجوار الكوب، وبقيت الشاشة مطفأة دقائق قليلة. كانت الدقائق ملكهم فعلاً، وشعر صابر بثقلها الجميل، ثم عاد إلى الاتصال قبل أن يبرد الشاي.

٢٤ | آخر مرة

جاء العرض الأخير محاطًا بكلمة «أخير» في ثلاثة مواضع. حد أقصى للقبول، وفرصة أخيرة، وصياغة نهائية. أرسله جمال مع تعليق يقول إن عليه التفكير بواقعية، وإن الصراع قد يستمر دون أن يعيد ما فات. جلس صابر يقرأ، وتوقفت عيناه عند تنازل لا يفصل بين الحق الذي يعرفه والمطالبة التي لم يفهمها بعد.

كان المقترح يقلل بعض المبالغ، لكنه يربط الاستلام بالتزامات جديدة، ويمنح الشركة مرونة واسعة في التنفيذ. طلبت هالة نسخة من جميع الملاحق. أجاب شريف بأنها موجودة في مقر الشركة للاطلاع. طلبت نسخًا يمكن مراجعتها، فقليل إن السياسة لا تسمح بإرسالها قبل التوقيع الأولي.

قال زياد إنهم لا ينبغي أن يوقعوا. لم يعارضه صابر هذه المرة، لكنه سأله عما سيحدث إذا رفضوا. فتح الابن فمه ثم أغلقه. لا يملك موعدًا بديلاً، ولا يستطيع أن يعيد لأبيه عمله، ولا أن

يعده بأن الطريق الصحيح أقصر. قال أخيراً إن عدم معرفة النهاية لا يجعل التوقيع الغامض نهاية جيدة.

وافقت سناء، ثم أضافت أنها ستبقى معه أياً كان القرار. سألتها إن كانت تستطيع العيش في البيت القديم دائماً. نظرت إلى السقف الذي أصلحوه مرتين وقالت إنهما عاشا فيه بالفعل، وإنها لا تخشى ضيقه بقدر ما تخشى أن يصير وحده وهو جالس بينهم.

في اليوم التالي ذهب صابر إلى المكتب ليأخذ ما جهز من ملفه. أعطته نجلاء مظروفاً بنياً، وفيه نسخ أكثر مما وصل في الشهور السابقة، وما زال بعض المطلوب ناقصاً. لم يكن جمال موجوداً. ترك صابر قائمة بالمستندات الباقية، وطلب رداً مكتوباً عن المصروفات التي لم تُسوّ.

اتصل به المحامي بعد خروجه. قال إن نقل الملف الآن قد يهدر جهداً كبيراً، وإنه كان على وشك الحصول على تنازل من الشركة. سأل صابر عن التنازل الذي سيحصل عليه هو. ساد صمت قصير. قال جمال إن الأمور لا تقاس بهذا التبسيط، فرد صابر بأنه يحتاج إلى شيء بسيط يستطيع أن يشرحه لزوجته.

لم يمه العلاقة في تلك المكالمة، ولم يمنحها ثقة جديدة. اتفقا على إرسال بيان نهائي. أغلق صابر الخط ووقف أمام محل مفاتيح. رأى صفوفاً من القطع المعدنية، كل واحدة لها أسنان دقيقة تختص بباب. أخرج من جيبه المفتاح الرمزي الذي حمله معه منذ الصباح، وقارنه بما وراء الزجاج. أعاده ببطء، واشترى حلقة صغيرة لإصلاح ميدالية سناء القديمة.

عاد إلى البيت قبل الغروب. وجد هالة تعد ملفاً جديداً مرتباً يمكن عرضه على مختص آخر. وضعت في أوله صفحة بعنوان «ما نعرفه وما ينقص». أحب صابر العنوان لأنه لا يعده بما ليس عندهم. جلس إلى جوارها، وحكى لها تفاصيل نسيها الأوراق: أين كان يوم دفع الحجز، وكيف احتاج في الفندق إلى العمل نوبة إضافية قبل إحدى الحوالات، ومتى توقفت سناء عن السؤال عن لون المطبخ.

قال لها في النهاية إنه صار غاضباً حتى من أسماء الأماكن. يفتح نشرة الأخبار فيسمع اسم المدينة فيضيق، ويسمع كلمة قضاء فيبدل القناة. قالت إنه يستطيع أن يغضب من أفعال من آذوه دون أن يطرد نفسه من كل ما يعرفه. وضع يده على يدها، ولم يجادل. في تلك الليلة حمل دواءه وكوب الماء إلى جوار السرير، وترك الهاتف يشحن في الصالة.

٢٥ | كلمات متعثرة

استيقظ صابر قبل البيت، على عادة لم تخرج منه مع نهاية الخدمة. حمل كوب الماء إلى المطبخ، ووقف ينتظر الغلاية. كان الصباح خفيفاً، والشارع تحت النافذة يفتح أبوابه واحداً واحداً. رأى عامل الخبز يضع الأرغفة في الصندوق، وشعر برغبة في النزول قبل الزحام وشراء إفطار تحبه سناء.

على المائدة ورقة تركتها هالكة، فيها ثلاثة أسئلة تحتاج منه إجابة عن ترتيب بعض الوقائع. جلس وأخذ القلم. كتب أول سطر، ثم توقف لأن الحرف لم يخرج كما أراد. حاول ثانية، فمال القلم وسقط من بين أصابعه. نظر إلى يده كأنه يرى أداة لا تستجيب للمرة الأولى.

نادى سناء، لكن الاسم خرج ناقصاً. سمع صوته فظن أن حلقه جاف، وحاول أن يرفع الكوب. اصطدم بحافة المائدة وانسكب الماء على الأرض. كانت سناء في الغرفة، جاءت تحمل ثوبها المنزلي على كتفها، وتوقفت في الباب حين رأت وجهه.

قالت اسمه وسألته إن كان يسمعها. أوماً، وحاول أن يشير إلى ذراعه. لم يستطع ترتيب ما يشعر به في جملة. في رأسه الكلمات موجودة، واضحة ومتجاورة، لكن فمه يخرج شيئاً آخر. عرف من عيني زوجته أن الأمر أكبر من دوار السلم، وشعر للمرة الأولى بأن الخوف يستطيع أن يكون بلا سؤال.

أيقظت زياد واتصلت بطلب المساعدة. نزل جارهم إلى الشارع، وفتح باب سيارة كان يغسلها. اجتمع الناس بسرعة متفاوتة؛ رجل يسأل عما حدث، وآخر يفسح الطريق، وصبي ينادي على المصعد الذي توقف في طابق آخر. رفض زياد أن يضعيع الوقت في الأسئلة. ساعدوا أباه على النزول، وأمسكت سناء حذاءه لأنها لم تجد فرصة للإلباسه جيداً.

كانت هالة في طريقها إلى العمل حين جاءها الاتصال. لم تسمع من أمها إلا «بابا تعبان». سألت عن المكان، وأوقفت السيارة التي تحملها عند أول نقطة تستطيع النزول فيها. تركت حقيبتها مفتوحة وهي تبحث عن نقود، وتبعثرت أقلام صغيرة على المقعد. قال السائق إنه سيوصلها، وإنه يعرف طريقاً أقرب. في السيارة الأولى، نظر صابر إلى جانب الطريق. تمر المحال أسرع مما اعتاد، ومع ذلك بدت المسافة طويلة. أراد أن يقول

لزياد إن الملف في الحافظة الزرقاء، ثم نجل من أن يكون ذلك أول ما يخطر له. حاول أن يقول «أمك»، وأن ينظر إلى سناء، ففهم الابن من حركة وجهه شيئاً ولم يفهم الباقي.

رفعت سناء حذاءه عن حجرها، وأمسكت يده بيديها. كانت تتكلم إليه عن أشياء صغيرة: إنهم قربوا، وإن هالة قادمة، وإن الباب سيفتح. ترددت عند كلمة الباب، ثم أكملت. لم يكن لديها وقت لتخاف من الكلمات التي اعتادوا أن يؤجلوها.

عندما توقفت السيارة أمام المستشفى الخاص القريب، خرج حارس بعربة. دفع زياد الباب الزجاجي، ونادى على من يساعد. قال رجل من الاستقبال إن الطبيب سيأتي. انحنت سناء على وجه صابر ومسحت زاوية فمه بمنديل. نظر إلى الثريا فوق المدخل، ورأى أن إحدى لمباتها مطفأة. حاول أن يرفع إصبعه إليها، على عادة من اعتاد أن يلاحظ ما يحتاج إلى إصلاح، ثم ترك يده تستريح حين عجزت.

٢٦ | الدفع أولاً

دخلت العرببة من ممر لامع إلى غرفة صغيرة. اقتربت ممرضة وقاست ما تحتاج إلى قياسه، وطلبت من الأسرة أن تنفس المكان. جاء طبيب مناوب، وسأل عن وقت بداية الأعراض والأدوية. أجاب زياد وهو يحاول أن يثبت صوته. قال الطبيب إن الحالة تستلزم تقييماً عاجلاً وإمكانات يجب ترتيبها فوراً، ثم خرج ليتصل.

في الاستقبال، طلب الموظف مبلغ تأمين كبيراً قبل استكمال إجراءات الدخول. وضعه على ورقة مطبوعة، وأشار إلى خانة توقيع. نظر زياد إلى الرقم كأنه خطأ في سماع الكلمة التي سبقتها. فتح هاتفه، وفحص رصيده، ثم سأل إن كان يستطيع دفع جزء وإكماله خلال ساعات. قال الموظف إن صلاحياته محدودة وإن الإدارة يجب أن توافق.

وضعت سناء بطاقتها وحليها القليلة فوق المنضدة. أعاد الموظف الحلي إليها بسرعة، مرتبكاً من منظرها أمام المنتظرين. قال إنهم لا يأخذون أشياء عينية. سألته عن شيء يستطيعون أخذه الآن

سوى الوقت. خفض عينيه إلى الشاشة، وطلب منها أن تنتظر مسؤول الحسابات.

لم تكن هالة تعرف ما الذي تفعله أولاً: تتصل بالأقارب، أم تشرح حالة أبيها، أم تجمع أرقاماً لتحويل المال. كل مكالمة تبدأ من الصفر، وكل قريب يقول جملة فزع ثم يسأل عن الحساب. بدأ المبلغ يتجمع ببطء، بينما يعيد الاستقبال السؤال عما تم تديره. كانت تجمع أجزاء صغيرة من الثقة التي أرسلها أبوها إلى الناس طوال حياته.

خرج الطبيب يسأل عن سبب التأخير. حدث حديث سريع بينه وبين الموظف، لم يسمعوا منه إلا كلمات متقطعة: موافقة، دخول، مكان بديل. ظهرت على وجه الطبيب حدة، لكنه لم يصطحبهم إلى غرفة مجهزة. عاد إلى صابر، وفحصه ثانية، ثم أبلغهم بأن عليه الانتقال إلى مكان يمكنه استكمال الرعاية المطلوبة، وإنهم سيعطونهم ملخصاً لما أجري.

سأل زياد إن كان النقل هو الأفضل لحالته أم لما في حسابهم. لم يجب الطبيب فوراً. قال إنه يريد أن يصل المريض إلى الرعاية دون مزيد من التأخير. وقف الابن أمامه منتظراً عبارة

أوضح، لكن صوت حالة أخرى نادى من الممر، واستدار الطبيب.

اقتربت الممرضة من سناء، وضبطت الغطاء حول صابر. كانت تسمى ليلى، وتحمل على صدرها بطاقة مائلة. قالت إنها اتصلت بالجهة التي اقترحوها للنقل، وإن عليهم أخذ الورقة معها. شكرتها سناء، ثم أمسكت طرف كمها لحظة، كأنها تمنع آخر وجه يعرف اسم زوجها من الابتعاد.

انتظروا سيارة نقل لم تأت في الموعد الذي قيل لهم. سأل زياد مرة أخرى، ثم اتفق مع السائق الذي أحضر هالة على المساعدة في الوصول. لم ير أحد في هذا القرار بطولية؛ كان اختياراً ضيقاً تحت ضغط ساعة لا تتوقف. أعطتهم الممرضة ما تيسر من ملخص، وراجعت مع زياد المعلومات التي ينبغي أن يسلمها للطبيب التالي.

وهو يمر من الاستقبال، رأى صابر يد ابنه فوق الهاتف، تتحرك بين أرقام لا تستقر. تذكر الشاشة التي كان يحسب عليها نصف قيمة العقار. أراد أن يوقف هذا الحساب كله، وأن يقول إن التعب ليس فاتورة جديدة يتركها لهم. خرج من فمه صوت

قصير، فأنحت سناء لتسمع. ظنت أنه يطلب الماء، بينما ظل هو ينظر إلى يدي زياد حتى غابتا وراء الباب.

٢٧ | الجهة الأخرى

في المستشفى الحكومي، لم يكن اللهبان يغطي الأرض. اتسعت الساحة لأكثر مما نتسع له الأبواب، ووقفت عائلات عند المداخل تحمل الأشعة والأكياس وأطفالاً نائمين. تحرك حارس بين السيارات يحاول أن يترك ممراً لعربة قادمة، وصاح رجل لأن أحداً أوقف سيارة أمام المنحدر.

وضعت الأسرة صابر على عربة وشرحت حالته إلى ممرضة تسير بسرعة. اسمها قر، وشعرها لا يظهر من تحت غطاء أبيض شاحب. أخذت الورقة وسألت عن الأعراض، ثم طلبت ألا يتركوه. دخلت تبحث عن الطبيب المتاح، وعادت لتأخذهم إلى مساحة جانبية ضاقت بعربتين وكرسي مكسور.

انتظروا مختصاً لم يكن موجوداً في القسم ذلك الوقت. قيل لهم إن جهاز الفحص المطلوب متعطل، ثم قيل إن هناك إمكاناً في مبنى آخر يحتاج إلى تنسيق. لم يستطع زياد أن يجمع الروائتين؛ كلما وجد شخصاً يشرح، استدعته حالة أخرى. في

الداخل طيب شاب يرفع صوته طالباً مستلزمات، وفي الخارج امرأة تبكي لأنها لا تعرف أين نقلوا أخاها.

وصل طيب بعد انتظار بدا بلا شكل. قرأ الملخص، وفحص صابر، وسأل عما أجري في المستشفى السابق. حاول أن يدبر مكاناً واتصلاً، ثم قال إن الإمكانيات التي يحتاجونها غير متاحة هنا الآن. أضاف اسم مستشفى آخر، وطلب نقلاً مناسباً. اتصل زياد بالمكان، ودخل في سلسلة تحويلات وانقطاع، بينما ظل الصوت الآلي يطلب منه اختيار الخدمة.

قالت سناء إنها لا تستطيع حمل زوجها من باب إلى باب. سمعها الطيب ووقف، ثم سحب كرسيًا ووضعها لها. كان التصرف صغيراً، لكنه جعلها تبكي للمرة الأولى. أخذت قر الورقة من يدها كي لا تثبل، وقالت إنها ستبحث عن بديل للنقل. لم تعدها بموعده.

في الممر، مر عامل نظافة يحمل وعاء ماء معتماً. أفسح الطريق للعربة، ثم أعاد مسح الموضع الذي انسكب عليه سائل. كان هناك من يهتم بأرض عليها ثلاث عربات أكثر مما يستطيع الاهتمام بأصحابها، وكل منهم يعمل في ضيق لا يراه الآخر

كاملاً. لم يخفف ذلك الألم عن هالة، لكنه منعها من العثور على وجه واحد تعلق عليه كل الصراخ.

طلب أحد العاملين نقل العربة إلى قرب الباب الخلفي، حيث يفترض أن تأتي سيارة النقل، كي يفسحوا ممر الحالات الجديدة. سألت هالة إن كانوا سيظلون تحت المتابعة، فقيل لها إنهم سيبلغون المسؤول بمكانهم. دفعت العربة مع أخيها إلى المظلة، وأخذت رقم الورقة التي تستكملها أمها في المكتب الأمامي.

وصل اتصال من قريب يقول إن تحويلًا ماليًا بات ممكناً. ذهبت هالة إلى طرف الساحة حيث تستقر الشبكة، وبقي زياد مع أبيه. حاول الابن الاتصال بخدمة النقل مجدداً. كانت سناء خلف زجاج الإدارة، تكرر الاسم كاملاً كي يكتبوه كما في البطاقة. سقط منها الحذاء الذي لم تضعه بعد في قدم زوجها، فأعادته إلى حجرها دون أن تتوقف عن التهجئة.

من موضع العربة، رأى صابر باباً مفتوحاً على ممر خدمة. وراءه سور قصير وأيكاس قمامة تنتظر الرفع. حرك رأسه ليرى السماء، ففجبا طرف المظلة. سمع في مكان قريب عاملاً يسأل

لمن هذه العربية، وصوتاً يجيب أن الأسرة ستعود حالاً. حاول
أن يحرك يده، لكنه لم ينجح في إيصالها إلى حافة الغطاء.

٢٨ | خلف المستشفى

عندما جاء عباس بعربة جمع الأكياس، وجد زياد واقفاً عند المنحدر يحاول أن يلتقط إشارة للهاتف. كانت عربة صابر قد سحبت قليلاً إلى الظل، قرب الحائط الخلفي الذي يحدد موضع تجميع النفايات. قال العامل إن هذا ليس مكاناً لانتظار مريض، ووضع كيسه بعيداً، ثم اقترب.

نظر إلى صابر وسأله إن كان يسمعه. تحركت عيناه نحوه. لم يعرف عباس ماذا يقول بعد ذلك، فنادى على الابن. عاد زياد مسرعاً، ووضع الهاتف فوق الغطاء. كانت الشاشة لا تزال تطلب منه الانتظار. لمس يد أبيه، وتكلم بصوت مرتفع قليلاً، كما يفعل الناس حين يخافون أن يصبح الصمت جواباً.

جاءت هالة قبل أن تكمل المكالمة. حين رأت وجه أخيها، وضعت هاتفها في حقيبتها المفتوحة وركضت إلى الباب. نادى على قمر وعلى أي طبيب يسمعها. تحرك أشخاص في الممر، وانسحبت عربة أخرى لتفسح مساحة. لم يعرف صابر من

الذي وصل أولاً، ولا ما الذي جرى حوله بعد أن أصبح الهواء بعيداً.

في رأسه انفتح مكان صغير من المغسلة القديمة. يسمع السير منتظماً، ويمد يده ليلتقط ملاءة بيضاء قبل أن تسقط. قربهِ نافذة عالية يمر منها الضوء. لا يحتاج هذه المرة إلى معرفة الساعة؛ سوف يخرج حين تنتهي النوبة، وستكون سناء في البيت لا في شاشة. تمر الفكرة دون كلمات، ويصير من الصعب أن يفرق بين الأصوات التي يعرفها والأصوات التي تنادي اسمه من الخارج.

وصلت سناء تحمل البطاقة والخذاء وورقة جديدة. رأت الناس حول العربية، فتوقفت لحظة، كأنها تنتظر أن يخرج أحدهم ليخبرها أين تقف. أخذ عباس الأشياء من يدها، ووضع الخذاءين متجاورين على كرسي قرب الباب. انحنت على زوجها وقالت اسمه بالطريقة التي كانت توقظه بها إلى العمل، حين كانا في أول الزواج.

حاول من حضر مساعدته، وطلبوا من الأسرة أن تبتعد قليلاً. ظل عباس عند الحائط، لا يرفع الأكياس ولا ينظر في وجوههم. كان ينتظر أن يقولوا له شيئاً يستطيع فعله. جاء

حارس وطلب فتح الممر، فأشار العامل إلى عربة القمامة وقال إنه سينقلها بنفسه. دفعها بعيداً حتى اختفت الرائحة عن المكان قدر ما يستطيع، ثم عاد فارغ اليدين.

لم تصل سيارة النقل في الوقت الذي احتاج إليه صابر. قبل أن يبدأ النهار في الانكسار، خرج إلى أسرته رجل يسأل عن اسم المريض ودرجة قرابتهم. فهمت هالة من نبرته قبل أن يكمل. مدت يدها إلى أمها، لكن سناء تجاوزتها إلى الغطاء الذي ارتفع فوق صدر صابر وسكن.

في المكتب، طلبوا بيانات لورقة أخرى. جلس زياد أمام الموظف، وأملى الاسم: صابر المتولي. كان خط الموظف واضحاً، وكتب وقتاً محدداً لم يطلب منهم أحد انتظاره. سأل عن العنوان، فتردد الابن بين بيتهم القديم والشقة التي يعرف رقمها. أعطاه عنوان البيت القديم. لم يذكر المشروع.

رن الهاتف في حقيبة هالة. نظرت إلى الشاشة فأتت رسالة تذكير من الشركة بقرب انتهاء مهلة العرض. أغلقتها، ولم تحذفها. احتاجت يديها لتثبت كتف أمها. عند الباب، أعاد عباس الحذائين، وسأل إن كان عليه أن يحضر ماء. شكرته هالة وسألته عن اسمه، ثم نطقت به كي تحفظه.

عاد زياد إلى البيت ليلاً وأخذ ملابس لأبيه. فتح الدولاب، فسقطت علبة مخملية صغيرة. رأى المفتاح الناعم، وأعادته إلى مكانه. بجواره حافظة زرقاء وحقيبة سفر خفيفة وساعة معلقة عند الثالثة وسبع دقائق. لم يفتح الحافظة. أخذ الجلباب الذي تجبه سناء، وأغلق الدرج برفق كي لا تستيقظ امرأة لم تعد في البيت.

خلف المستشفى، عاد عباس إلى عمله. في الموضع الذي كانت فيه العربة بقي مستطيل جاف وسط ماء الغسيل. رفع آخر كيس، ومرر الممسحة حوله، ثم توقف قليلاً قبل أن يمسح المكان كله. كانت الشمس تميل فوق الحائط، وتضيء صفاء من نوافذ لا يستطيع من يقف في الأسفل أن يعرف أيها يفتح.

عن الكاتب

د. وجيه الجوهري كاتب وتربوي وفنان، يجمع في اهتماماته بين الثقافة والتعليم والفن وقضايا الإنسان في الغرب. يحمل درجتي دكتوراه في التنظيم والإدارة والقيادة التعليمية، إلى جانب دراساته في الإدارة والقيادة والفنون الجميلة.

تناول «لصوص العاصمة الإدارية» حلم العودة حين يتعرض للاستنزاف، وتضع الأسرة والذاكرة والكرامة في قلب حكاية تتشابك فيها الوعود والعقود والانتظار.

مؤسسة ثقافات العالم والتعليم (WCE) تهتم بالتواصل الثقافي والتعلم والإبداع.

mywce.org

DrE@mywce.org



لصوص العاصمة الإدارية

عاد ليجد بيتاً. فوجد موعداً آخر.

ثمانية وعشرون عاماً في الغربة، وعقد شقة، ورسم لشرفة. حين يعود صابر المتولي ليبدأ ما بقي من حياته، يجد أن للفتاح ثمناً جديداً، وأن للطريق إلى الحق أبواباً لا تنتهي.

بين المطور رفعت الكيال والمحامي جمال قرقرش، تحمل أسرة صابر ملفاً يزداد سمكاً، فيما تضيق الحياة حول صاحبه.

رواية عن المال والانتظار والكرامة، وعن الإنسان الذي يظل اسمه كاملاً مهما صغرت الخانة المخصصة له.



د. وجيه الجوهري
مؤسسة ثقافات العالم والتعليم

mywce.org · DrE@mywce.org